زهرة الصحراء

تأليف
حسام أبو سعدة

أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامي
ش.م.م.

زهرة الصحراء
(١)

جلس «محمد السيوفى» وحده فى أحد الكازينوهات المطلة على النهر مباشرة، يرتشف كأسه فى نشوة و هو يتأمل انعكاسات الأضواء على صفحة المياه المنسابة فى رقة، مستمتعًا بنسمات الليل التى يعشقها حتى أصبح على يقين من أنه يستنشق روحه ذاتها أثناء هدوء الليل.

غاضت ابتسامته بعد انصراف الأصدقاء الواحد تلو الآخر. عاد كل منهم إلى زوجته و أولاده لينام فى هدوء و سلام و بقى وحده. قال أحدهم و هو ينصرف: صحتى لم تعد تتحمل السهر، هذا الندى قد يهدنى فى الفراش لمدة أسبوع. كانت أعمارهم تتراوح ما بين الخمسين و الستين، إلا أن «محمد السيوفى» لا يشعر أبدًا بالشيخوخة و لا العجز، بل يشعر فى داخله أنه مازال هذا المراهق الذى لم يتم العشرين بعد، كل شىء ممكن. مازال يبحث عن الأمل، مازال قلبه ينبض بشدة و عنف متعطشًا إلى محبوبة يدفن رأسه فى صدرها فينعم بالهدوء و الراحة، يرى الدنيا من بريق عينيها وتشعر هى بالحياة من ألحانه و إحساسه الدافق بالكون الفسيح...

طالعه وجه «نسرين» من خلال صفحة النهر مبتسمًا فى رقة وعذوبة عندما كان يقول لها: «أنت الشىء الوحيد الطاهر فى حياتى». تغض من بصرها و يعلو وجهها البرىء حمرة الخجل. كانت تلميذته فى معهد الموسيقى، أعجبه صوتها و هى تشدو بالأغانى الشرقية الصعبة، افتتن بصدق إحساسها و تعبيرات وجهها و هى تغنى فى انسجام تام مع اللحن، بل انسجام تام مع الكون بأكمله. هى أيضًا مثله ترى أن الله لم يخلق هذا الكون إلا من أجل الموسيقى و الشعر و ماعدا ذلك عبث مصيره الفناء. توقع لها مستقبلاً باهرًا، بدأ يخصها بتدريبات صوتية غاية من الصعوبة، يلتقى بها يوميًا إما فى المعهد أو الأوبرا، ثم يخرج لتوصيلها إلى المنزل. فى ذات يوم و هى بجواره فى السيارة أدار المسجل على موسيقى شرقية هادئة، كان أنين الناى هو العازف الأول فى هذا اللحن فإذا بها تبكى. سألها مشفقًا على هذه المراهقة الصغيرة من الشعور بالشجن الذى يعرف مدى قسوته جيدًا. فقالت فى تهدج وهى تمسح دموعها:

ـ لا أستطيع التحكم فى أعصابى عند سماع أنين الناى.

أوقف المسجل و أوقف السيارة ثم قال محاولاً سبر أغوار هذا المخلوق الرقيق:

ـ لابد أن هناك سببًا.. العقل يقول ذلك..

لـم تـرد، بـدى علـى وجههـا الشـعور باليـأس و الحـزن فقـال لحثهـا علـى الحديـث:

ـ الفنان يجب أن يدرك جيدًا ما وراء هذه المشاعر الجياشة.

بكت و هى تقول:

ـ لدى إحساس أكيد بأننى لن أنجح فى الغناء.

سأل فى ذهول:

ـ لماذا؟

ـ الطـلاب فـى المعهـد يقولـون أن المغنيـة لابـد أن تكـون جميلـة، ولهـذا بـدأت زميلتنـا «حسـناء» فـى تصويـر أول أغنيـة لهـا بينمـا لا ينتبـه إلـىَّ أحـد.

ـ أنا أرعى موهبتك.

ثم أكمل عابثًا محاولاً تفريج كربها:

ـ ألسـت «محمـد السـيوفى» الـذى يقـدم حفلاتـه فـى الأوبـرا ملحنًـا مشـهورًا؟ ألـم تسـمعى عـن نجـاح حفلاتـى فـى الخـارج.

توقفـت عـن البـكاء معتـذرة فـى أدب. أسـند ظهـره إلـى بـاب السـيارة يتأملهـا، اكتشـف أن زملاءهـا علـى حق، ليسـت جميلـة هـذا الجمـال الباهـر، شـفتان رقيقتـان، عينـان ضيقتـان، شـديدة النحافـة

حتى إنه لا يبدو فى جسدها أى بروزات أنثوية. لكن لديها إحساس صادق بكل كلمة، كل همسة، كل نغمة. قال مشجعًا:

ـ أنا واثق من نجاحك. الفن الأصيل ليس فى الجمال الصارخ أو الرقص الخليع. الفن إحساس.

قالت فى يأس:

ـ لكن هذه الأشياء هى بوابة النجاح الآن.

ـ صوتك سيمس قلوب الناس رغم أنفسهم. ثم إنك لا تقلين جمالاً عن «حسناء»، أنا و كثيرون مثلى يرون أنك فائقة الحسن.

منذ هذا اليوم أصبح يناديها بـ «تلميذتى الجميلة»، و فى بعض الأحيان يعقب كلمات التشجيع بكلمات الغزل الرقيق فى جمالها وفتنتها، فاقتربت منه أكثر، و عندما شعر بها تفتح له زهور قلبها المراهق الصغير قال لها مبتسمًا فى عتاب:

ـ أنا فى الخمسين و أنت فى السابعة عشر. لو كنت قد تزوجت لكان لدى الآن ابنة فى مثل سنك.

ضحكت فى دلال و هى تسأله:

ـ لماذا لم تتزوج؟

أجاب فى هدوء:

ـ لا داعى أن أشغل بال ابنتى بمثل هذه الأمور.

ثم دفعها من ظهرها برفق إلى جوار البيانو وهو يقول:

ــ لا تشغلى بالك بأى شىء أخر، الفن يحتاج إلى رهبنة من نوع خاص.

عاد «محمد السيوفى» من ذكرياته على صوت احتكاكات حادة بجواره. التفت فإذا به رجل ضخم شديد الأناقة يجالس حول المنضدة المجاورة إحدى فتيات الليل، يقهقهان فى بذاءة كأن المكان بأكمله ملكًا خاصًا بهما. نظر إليهما فى قرف، ترك الحساب على المنضدة و انصرف.

وقف بجوار سيارته الضخمة ذات الدفع الرباعى لا يعرف أين يذهب. لا يريد العودة إلى منزله ليبات وحده، الكوابيس تطارده هذه الأيام فيهب من نومه مفزوعًا على مشهد قبر أو نعش يتحرك قادمًا إليه. أحيانًا يرى نفسه ميتًا مكفنًا يهبطون به إلى ظلام دامس فى جوف الأرض، الوحدة وحش كاسر ينشب أظافره فى صدره فيسيل الدم مختلطًا برائحة الخمور و السجائر و البن. راح يتجول فى أرجاء المدينة الساهرة طول الليل. أدار المسجل فانسابت الموسيقى دون أن يشعر بأى بشىء. أغلق النوافذ، أخرج زجاجة الخمر من تحت مقعده و راح يشرب محاولاً الاستمتاع بالموسيقى، الطنين الذى يعرفه جيدًا بدأ يغزوه. السيارات و المارة يتحركون حوله دون أن يسمع لهم صوت كأنه من عالم آخر غير

عالم هؤلاء البشر. مر بجوار أحد الإعلانات الكبيرة عن الحفل الذى سيقيمه الأسبوع القادم فى الأوبرا. مد ذراعه بالزجاجة إلى صورته قائلاً فى سخرية:

ـ فى صحتك يا من تدعى الفن و الإنسانية...

وجد نفسه يقف جوار المقابر. أوقف المسجل و راح يراقب شواهد القبور الحجرية الغارقة فى صمت كثيف بينما تمر السيارات مسرعة لا تلوى على شىء. تعجب كيف نثق جميعًا أن نهايتنا ستكون فى هذه المقابر الموحشة لمواجهة الذات الإلهية و مع ذلك نستمتع بحياتنا كأننا سنخلد إلى الأبد؟!..

ظهر له طيفها من بين شواهد القبور. بعد أن دربها و أعدها إعدادًا جيدًا لمدة عامين متصلين بدأ يختار لها كلمات الأغنية الأولى، ثم انهمك فى إعداد لحن يبرز محاسن صوتها محاولاً استخراج هذه المشاعر الرقيقة العميقة من صدرها لتطرب الآذان وتشجى النفوس. قبل الحفل بشهر واحد أُصيبت بنوبة برد مصحوبة بارتفاع فى الحرارة. قبعت فى المنزل لمدة يومين اثنين تتناول أقراص المُسكن و تشرب عصير الليمون. كان يطمئن عليها من خلال التليفون صباحًا و مساءً. فى آخر اتصال ردت عليه والدتها و هى تنتحب قائلة:

ـ «نسرين» ماتت... ماتت.

علم بعد ذلك أنها ماتت مصابة بالحمى الشوكية التى لم يتوقعها أحد. كلمات الأم الملتاعة ترن فى أذنيه كأن العالم بأسره يردد: ماتت... ماتت...

لماذا خُلقت؟... هل خُلقت لتموت و هى فى التاسعة عشر؟ لماذا وهبها الله الصوت الرائع و الإحساس الدافق و لم يمهلها حتى تؤدى رسالتها النبيلة الشريفة؟... لم تكن تبغى الشهرة الزائفة لتنعم بشهوات الحياة الزائلة... يريد البكاء... يجب البكاء... لكن الدموع تحجرت فى عينيه كأنها تعانده. حتى دموعه هو تأبى عليه الراحة و السكينة.. رُفع أذان الفجر. «الله أكبر» حاصرته من كل صوب، زلزلت كيانه فانفجر فى البكاء. عاد مسرعًا إلى السيارة خشية أن يراه أحد.. إنه لا يكره شيئًا فى هذه الحياة أكثر من الاستسلام والخضوع. يكره الضعف بكل صوره، يجاهد جهادًا عنيفًا حتى يبدو قويًا أمام الناس.

أدار السيارة، تمهل قليلاً أمام أحد المساجد و راح يتأمل المصلين و هم يخلعون أحذيتهم على الباب فى هدوء، يفرون من ظلام الشوارع إلى نور المسجد. تمنى أن ينزل إليهم و يصلى معهم، يستأنس بهم من وحشته. لكن كيف يصلى و رائحة الخمور تفوح منه؟ لو اشتمها أحدهم سينهالون عليه ضربًا. ابتسم فى سخرية عندما اكتشف أنه بعد أن حقق كل طموحاته و أحلامه فى

عالـم الفـن و الشـهرة أصبـح يحسـد هـؤلاء البسـطاء علـى هدوئهـم وسـكينتهم.

تنـاول زجاجتـه و عـب منهـا فـى نهـم حتـى سـاحت علـى ثيابـه. تذكـر نصيحـة الطبيـب لـه منـذ يومـين بأنـه يحتـاج إلـى تغييـر شـامل فـى حياتـه لتخطـى حالـة الاكتئـاب. برقـت عينـاه و هـو يقـول فـى نفسـه: و لمـا لا؟... دخـل محطـة البنزيـن ليمـلأ الخـزان عـن آخـره، مـلأ الخـزان الإضافـى، اشـترى أربـع زجاجـات وسـكى و قاروسـتين مـن السـجائر وبعـض المعلبـات، ثـم ضغـط علـى دواسـة البنزيـن متجهًا إلـى واحـة «سـيوة» فـى قلـب الصحـراء.

●●●

(٢)

جلس فى شرفة الفندق الوحيد فى الواحة يتناول إفطاره مستمتعًا بهدوء الصحراء. أمام الفندق أرض واسعة مزروعة بنخيل البلح، هذا النخيل ينتشر هنا فى كل مكان و بجميع أنواعه. غذائهم الأساسى منه و بعض أنواع الجبن الرخيصة بدائية الصنع. لا يوجد سوى طريق أسفلتى واحد فقط و الباقى عبارة عن ممرات ترابية. حول الفندق تتناثر بعض البيوت البدائية المبنية من الطين الجاف، فى الجهة الغربية من الفندق توجد ما يطلقون عليها «سيوة القديمة»، مجرد جبل مرتفع تتناثر عليه الجحور فى كل مكان. يقولون أنها بيوت أجدادهم. البيوت تتصل ببعضها البعض من خلال ممرات غاية فى الضيق. سار بها يتعثر و يتخبط فى الجدران و الصخور متعجبًا كيف كانوا يعيشون هنا..

بالأمس زار أنقاض معبد قديم. المعبد ليس سوى بضعة أحجار متناثرة منقوشة عليها بضعة حروف إغريقية و هيروغليفية. يعلم من خلال ما قرأه أنهم توجوا «الإسكندر الأكبر» إلاهًا و ملكًا على مصر فى هذا المعبد. تذكر ما قرأه عن عبقرية هذا البطل المغوار الذى أراد أن يحكم الدنيا بأسرها فخرج من بلاده يحارب و يقاتل. لم ينهزم قط فى حياته و لم يعد إلى بلاده... ضحك

«محمد» من أعماقه على أنقاض المعبد عندما تذكر ماقرأه عن «تاييس» عشيقة «إسكندر». كانت ترتمى فى أحضانه عندما اكتشفت وجود ثقب فى الخيمة فأشارت إليه بإصبع قدمها. قال «إسكندر» مازحًا: هذا الثقب أستطيع أن أرتقه لكنى لن أستطيع أن أطفئ الشمس. ابتعدت عنه و هجرته، لم تعد إليه إلا بعد أن وعدها بأنه سيطفئ الشمس من أجلها عندما يعود إلى أثينا.

بعد الإفطار طلب القهوة، فجاء «حسين» البدوى، إنه العامل الوحيد هنا. أسمر البشرة تجاعيد الجبال تبدو فى وجهه رغم أنه لم يتجاوز الأربعين، متوسط الطول يرتدى جلبابًا أبيض شاحب، رغم خشونة مظهره ، و رغم دهائه و مكره إلا أنه يبدو إنسانًا مسالمًا وديعًا، صافى الذهن، نقى القلب. صب «حسين» القهوة و هو يسأله فى تشكك:

ـ الناس لا يأتون هنا إلا فى مجموعات ما الذى أتى بك وحدك؟

أجاب «محمد» فى آسى:

ـ ليس لى أصدقاء.

قال «حسين» و هو يرميه بنظرات ثاقبة:

ـ مستحيل، الإنسان لا يستطيع الحياة وحيدًا.

ابتسم «محمد» يتأمل النخيل:

ـ أعرف أناس كثيرون لكنهم ليسوا أصدقاء.. أقربهم إلىّ هو «هانى». هل تعلم ماذا فعل معى؟

جلس «حسين» و هو يسأل:

ـ ماذا؟

راح «محمد» يشرح له ماحدث: منذ ستة سنوات تقريبًا أرادت وزارة الثقافة إقامة حفلاً موسيقيًا فى الإسكندرية و طُلب منى المشاركة رسميًا فى هذا الحفل، بالرغم من أننى من مواليد الإسكندرية إلا أننى لا أرغب فى العودة إليها و لا حتى زيارة قصيرة لمدة يومين. القاهريون يطلقون عليها مدينة الأشباح لهدوء شوارعها أثناء الليل. لو كان القاهريون على حق فإن القاهرة مدينة الشياطين.

لم يفهم «حسين» شيئًا لكنه ابتسم مجاملة و أكمل «محمد»:

ـ اعتذرت عن الحفل و صديقى «هانى» يعلم جيدًا سبب اعتذارى، إلا أنه وشى بى إلى الوزير زاعمًا له أننى اعتذرت لإحراجه فى المحافل الدولية.

ـ لماذا فعل ذلك؟... و لماذا صدقه الوزير؟

ـ لا أعرف لماذا؟ لكن هذا ما حدث و كانت النتيجة أننى مُنعت من دخول الأوبرا لمدة عامين إلى أن تبدل سيادة الوزير.

ـ هذا ليس صديقًا!..

ارتشف «محمد» القهوة ثم قال:

ـ بالرغم من ذلك مازالنا صديقين نتقابل يوميًا، هل تعرف لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأن هذا الرجل له ميزة جميلة، خفة ظله، عندما أكون معه أضحك من أعماق قلبى حتى أشعر بالألم فى معدتى و تصدع رأسى ثم أننى لن أستطيع الحياة بمفردى. كلهم كذلك.

انتفض «حسين» فوق مقعده:

ـ ليس كل الناس مثل صاحبك، أنت الذى أسأت الاختيار ومازلت مصرًا على مصاحبته.

رُفع أذان الظهر، شعر «محمد» بالكآبة تحوم فى صدره مثل طائر جارح ينهش قلبه فهب واقفًا و هو يقول:

ـ ما رأيك يا صديقى فى أن نصلى سويًا فى المسجد.

سار «محمد» بجوار صديقه البدوى إلى المسجد طالبًا رحمة الله مستعيذًا من الشيطان الذى يوسوس دائمًا و أبدًا فى قلبه المكلوم، عندما دخل المسجد أخذته الرهبة رغم بساطة الزخارف البدوية، ما أجمل أن يعيش الإنسان فى هدوء و أمان تحت رعاية الله الرحمن الرحيم. ما أروع الرضا و التسليم بالقدر. لقد ضاع

العمر هباءً فى صراعات مريرة عنيفة فأصبح على مشارف الموت دون أن يشعر بالهدوء و لو للحظة واحدة.. فى أثناء الصلاة كابد كثيرًا محاولاً كبح جماح دموعه التى تريد أن تنهمر. أضاع دنيته دون الاستمتاع بها و أضاع آخرته، فلن يرحمه الله أبدًا...

صلى صلاة العصر أيضًا فى المسجد مع صديقه «حسين»، بعد الصلاة اتجه إلى جزيرة «فطناس» التى سمع عنها. سار بالسيارة إلى أن وصل إلى منطقة وعرة. صخور صلدة تتغرس فى المياه الجوفية الضحلة، ترك السيارة و قفز فوق الأحجار إلى أن وصل بعد بضعة أمتار إلى تبة مرتفعة محاطة بالمياه الجوفية الصافية الدافئة من كل جانب. الأرض طينية، الأشجار كثيفة كأنه فى غابة استوائية و ليست صحراء. الأشجار تنبت بطريقة عشوائية فتتجلى رحمة الطبيعة و عظمة الخالق. استنشق الهواء الجاف النظيف بارتياح بالغ فنبت فى صدره شعور بأن الله لم يخلق هذا الجمال إلا من أجل متعة الإنسان و من لا يستمتع به يعاقبه الله عقابًا شديدًا. جلس على الأرض مستظلاً بشجرة ضخمة غامضة و راح يتأمل هذه الجنة القابعة فى قلب الصحراء و هو يقول فى نفسه: ما فاز بالملذات إلا كل مجازف.

تذكر صديقته «سلمى» متمنيًا وجودها معه الآن. تعشق الحياة مثله، مفعمة بالنشاط و الحيوية، و تهيم عشقًا به و بألحانه

السريعة. تعتمد إثارته و لفت نظره حتى تشعره بأنها لا ترقص إلا له وحده و على أنغامه هو فقط.

كانت ابتسامتها صافية حانية، أسرته بحنانها الذى لم يشعر به من أى إنسان سواها، تمدحه إرضاءً لغروره، تمنحه عقلها و قلبها وجسدها، فهى على استعداد لفعل أى شىء من أجل إسعاده. كانت الواحة التى يلجأ إليها من حين لآخر، الصدر الحنون الذى يختبئ فيه كلما تعثر، طريق الفن طويل شاق، كله قلق و انفعالات، إبر وأشواك. لابد من وجود امرأة بجواره لتعيد إليه توازنه النفسى بعد أن فقد «رشا» إلى الأبد...

عندما تذكر «رشا» شعر بالبرد يدب فى أوصاله، فوجد نفسه يتجه إلى السيارة رغمًا عنه بحثًا عن زجاجة الوسكى، عاد إلى قلب نفس الشجرة أشعل نارًا صغيرة و راح يشوى أصابع السجق الواحد تلو الآخر و هو يرشف من زجاجته. دبت الحرارة فى جسده فخلع سترته ثم قبل الزجاجة فى نشوة بعد أن امتلأ بطنه و دارت رأسه. مدد جسده على الأرض و هو يتأمل القمر الساطع من ناحية الشرق.

هبط الظلام كثيفًا موحشًا دون أن يدرى، عاد إلى السيارة بخطوات مترنحة، سمع صوت همهمات غريبة يأتيه من يساره، التفت فاتسعت عيناه فزعًا حتى تلاشى تأثير الخمر. رجلان

مضرجـان بالدمـاء الحمـراء القانيـة، الوجهـان متسـخان ممسـوخان، يتواجهـان بنظـرات التحـدى النارية و همـا يزومـان مثـل الذئـاب الجائعـة.. ارتجفـف «محمـد» هلعًـا، تـرك لسـاقيه العنـان، تعثـر فـى أحـد الأحجـار فوقـع علـى ذراعـه الأيسـر.

●●●

(٣)

استيقظ فى الصباح مصدع الرأس، الألم يضرب كل أعضاء جسده. الضوء يتسلل من النافذة خافتًا صافيًا، لا يجد فى نفسه أية رغبة فى مغادرة الفراش، يتمنى لو أن يظل هكذا إلى الأبد، لا يفكر فى شىء و لا يشعر بشىء، لم تعد الألحان تجيش فى صدره وتقلقه حتى تخرج إلى النور مثلما كان يحدث فى الماضى. الصحراء الصماء ليست حوله بل فى أعماقه.

عندما رفع الغطاء مكرهًا اكتشف أنه ينام بكامل ثيابه، حتى الحذاء لم يخلعه، بينما فى ذراعه الأيسر كدمة زرقاء، تذكر ما حدث ليلة أمس، نظر فى المرآة فوجد حول عينيه الهالات السوداء المرهقة، بريق العينين قد انطفأ و لن يعود أبدًا، تجاعيد الزمن بدأت فى الظهور رغم أن قلبه مازال ينبض بقوة و عنف. لاحظ اخضرار ذقنه فتساءل فى نفسه: أحلقها و أهذبها من أجل من؟!

اغتسل و بدل ثيابه حتى يبدو طبيعيًا أمام الناس بينما رأسه تدور و أذنيه تطن، نزل ليتناول الإفطار فى ردهة الفندق بخطوات ثقيلة مترنحة، تراقص الدرج تحت قدميه فسقط صارخًا. أتى «حسين» جريًا من المطبخ و راح يعاونه على الوقوف. سوى هندامه، حاول التماسك ثم طلب القهوة. سأل «حسين» مستنكرًا:

ـ قهوة على الريق؟!

قال «محمد» بصبر نافذ:

ـ القهوة.

صب «حسين» القهوة و هو يقول معاتبًا:

ـ ألم أنصحك بعدم التأخير فى جزيرة «فطناس»؟

سأل «محمد» متشككًا:

- ماذا تقصد؟

- أقصد ما رأيت.

نظر «محمد» إليه مليًا، إنه يعلم بما يحدث، هل معقول أن يكون هناك جن و عفاريت و مثل هذه الخزعبلات؟! لقد رأى الشبحين بعينيه. حقيقة لا يدرى إن كانا شبحين أم رجلين أم أنها أوهام الخمر. فقال مؤكدًا لنفسه:

- لقد كنت ثملاً.

- ربما.

شعر «محمد» من نظرات البدوى أنه ربما يكون قد وقع فريسة لعصابة لصوص من البدو، فتساءل فى مكر:

ـ ماذا يحدث فى جزيرة «فطناس»؟

أجاب «حسين» فى حذر:

ـ يحدث ما رأيت.

لا بد من المواجهة، فسأل:

ـ من هم؟

ـ «ياسر» و «رجب».

قال «محمد» ساخرًا:

ـ تعرف أسماءهما أيضًا؟...

قال «حسين» فى صرامة بدوية:

ـ و أعرف قصتهما.

راح «حسين» يقص عليه قصة هذين الشبحين: كان والد «ياسر» و أخيه «رجب» من أغنى أغنياء الواحة، أصحاب أرض وزرع، آبار وأموال، سلطة و جاه، الجميع يحترمهما و يهابهما، من يخرج عن طاعتهما لابد أن يُطرد من الواحة بأكملها، و الصحراء لن ترحم أبدًا هذا الطريد. كان والد «ياسر» يحذره منذ نعومة أظافره من عمه، فيقول له إن عمه هو أول إنسان سيأكل أمواله و أرضه بالباطل، لابد أن تكون واعيًا لحالك و مالك. قال له ذلك ثم مات تاركًا «ياسر» فى الرابعة عشر من عمره. حاول الشيخ «رجب» المحافظة على الأموال و الجاه، وضع يده على كل الأرض

و الآبـار دون أن يبخـل علـى «ياسـر» و إخوتـه الصغـار، لكـن «ياسـر» لـم ينـس أبـدًا كلمـات أبيـه، بعـد مـرور أربعـين يومًـا فقـط علـى وفـاة والـده بـدأ يطالـب عمـه بـالأرض و الآبـار، لـم يجـد الشـيخ «رجـب» فـى تصرفـات ابـن أخيـه مـا ينـم عـن الرجولـة و رجاحـة العقـل، فلـم يأبـه لطلبـه، بيـد أن «ياسـر» عانـد و كابـر و بـدأ يتهـم عمـه بسـرقته فـى مجالسـه مـع أصدقائـه، ويقولـون أن أم «ياسـر» كانـت توافـق ابنهـا فـى هـذا الاتهـام. عندمـا علـم الشـيخ «رجـب» بذلـك عانـد هـو الآخـر حتـى طـرده قائـلاً: ليـس لـك شـىء عنـدى. حـاول أهـل الواحـة الصلـح بينهمـا، بينمـا سـعى آخـرون للفرقـة بينهمـا، و اشـتد النـزاع. فـى ذات يـوم طلـب «ياسـر» مقابلـة عمـه فـى جزيـرة «فطنـاس» للتشـاور فيمـا بينهمـا بعيـدًا عـن عيـون النـاس، التقيـا و كان كل منهمـا يضمـر الغـدر بالآخـر، كان مـع كل منهمـا مديـة، فقتـل كل منهمـا الآخـر.

سـأل «محمـد»:

ـ هل يظهران كل يوم؟

أجاب «حسين»:

ـ ليـس كل يـوم. إمـام المسـجد يؤكـد أنهمـا لا يظهـران إلا للفاسـقين فقـط. لذلـك علمـت أنهمـا سـيظهران لـك بالأمـس.

أشـعل «محمـد» سـيجارته و هـو يفكـر فـى هـذه القصـة غيـر مصـدق مـا حـدث. مـن الواضـح أن «ياسـر» كان مراهقًـا صغيـرًا،

إنهـا مرحلـة طبيعيـة، و الشـيخ «رجـب» رجـل ناضـج عاقـل. إنهـا دسـائس الشـيطان، وسـوس فـى صـدر كل منهمـا، ألا يوجـد فـى هـذه الواحـة الهادئـة المسـالمة مـن هـو قـادر علـى سلسـلة هـذا اللعـين؟...

بعـد صـلاة الظهـر وضـع «محمـد» غـداءه فـى السـيارة منطلقًـا إلـى جبـل الدكـرور، فـى الطريـق رأى عيـون «كليوباتـرا»، كمـا قـال لـه «حسـين» البئـر ليسـت عميقـة، صافيـة رائقـة حتـى تظهـر كل تفاصيـل القـاع تمامًـا، لكنهـا عيـون للميـاه لـم تنفـذ منـذ آلاف السـنين، هـذه هـى الميـاه المعدنيـة الطبيعيـة التـى يتحدثـون عنهـا، مـد يـده يجسـها فوجدهـا دافئـة حانيـة، مـلأ يديـه ليتذوقهـا، لـم يستسـغها رغـم كل المقـالات و الكتـب التـى كُتبـت عنهـا.

جلـس علـى حافـة البئـر يتأملـه. يشـعر ببعـض الارتيـاح لهـذا التجديـد الـذى حـدث، كان لابـد مـن هـذه الرحلـة بعيـدًا عـن صراعـات القاهـرة العنيفـة، بـدت لـه صـورة «سـلمى» فـى عمـق البئـر، ترميـه بنظراتهـا الحانيـة التـى يعرفهـا جيـدًا و يشـتاق إليهـا. ثـم تبدلـت نظرتهـا إلـى عتـاب، نظـرات العتـاب كربـاج يلسـعه و يؤلـه.

كانـت أرملـة تسـعى لتربيـة ابنهـا الوحيـد تربيـة جيـدة، تحلـم بـه رجـلاً يافعًـا ناجحًـا، فهـى تعلـم جيـدًا قيمـة العمـل و طعـم النجـاح، لكنـه لـم يهتـم بابنهـا علـى الإطـلاق، و لا بهـا هـى أيضًـا، لا يريـد غيـر الألحـان و المجـد، عندمـا يسـتعصى عليـه لحـن مـا يسـتبد بـه القلـق فيشـعر بمـا

يشعر به الرجل العقيم العاجز عن الإنجاب، يطلبها فتأتيه بخطواتها الرشيقة المفعمة بالحياة فيشعر بالسعادة، يرتمى فى أحضانها، تهدهده مثل طفل صغير، تنفخ فيه روح الفن الشفافة الصافية، ينهل من صدرها و يعب من حبها حتى يزول قلقه و يعود إليه صفاء الذهن، فيلحن و يبدع و تسعد هى بنجاحه الذى تمجده فى كل مقالاتها. عرف الجميع بحبها له. كانت سعيدة بذلك، علم الجميع باستغلاله لحبها أبشع استغلال و كان سعيدًا بذلك. كثيرًا ما طلبت منه الزواج لكنه لم يكن يلبى لها أى طلب.

شعر ابنها الصغير بإهمالها له فبدأ يهمل فى دروسه، ثم بدأ يسرقها لا لشىء إلا لمجرد سرقتها، فدخلت «سلمى» فى دوامة لا تعرف منها فكاك. عندما كبر الصغير و أصبح مراهقًا فى السادسة عشر أصبح له علاقات حميمة مع أبناء الأثرياء وأصحاب النفوذ الذين يعانون إهمال أهلهم مثله، حتى فوجئت به يدمن المخدرات، فأصبح يسرقها لإشباع مزاجه بعيدًا عنها، اشتدت الدوامة عنفًا حتى ذبل جمالها و غاضت ابتسامتها الصافية الحانية، فتركها وولى هاربًا بحثًا عن إشباع رجولته فى أحضان معجباته الكثيرات.

عاد «محمد» إلى سيارته منطلقًا إلى جبل «الدكرور». لم يجده جبلاً صخريًا ضخمًا كما كان يتخيله، مجرد جبل صغير

من الرمال الناعمة حتى أنه خشى صعوده بالسيارة. صعد إلى القمة و راح يتأمل الصحراء من حوله فى كل اتجاه. جلس يتناول غداءه و هو يفكر فى حاله، لم يجد فى نفسه أية رغبة فى الطعام، فأتى بزجاجاته و راح يأكل و هو يفكر: يريد أن يكون سعيدًا و لا يعرف كيف؟ يعشق الحياة و لا يعرف كيف يحيا؟ يبحث عن الهدوء و لا يعرف له طريقًا. يتمنى الإيمان و العيش فى رضا الله و الخمور تجرى فى دمه. لماذا كتب الله على الإنسان الشقاء و البؤس؟ لقد أكد على ذلك. هو الذى خلقنا و وصف نفسه بالرحمن الرحيم.. عادت إليه الأفكار الكئيبة التى كانت تراوده فى الإسكندرية، لماذا حرم الله الانتحار؟ المنتحر لا يفعل شىء سوى أنه زهد الدنيا ويئس منها فاتجه إلى ربه الرحيم، ما الحرام فى ذلك؟ هل لابد من الاستمرار فى هذا الشقاء الذى يدفعنا إلى الانغماس فى الشهوات و الملذات حتى نموت كفارًا؟!

الدوار يصيب رأسه، أصم أذنيه بيديه، يعلم جيدًا أنه يتبجح بعقله الملحد الشقى على إرادة الله. يجب إسكات هذا العقل بأى أسلوب، فراح يعب من زجاجاته، أدار المسجل بأعلى صوت و راح يرقص وحده فى الصحراء لعله يشعر بالسعادة... دارت الدنيا ترقص حوله، لم يشعر بنفسه إلا بعد أن هبط الظلام...

دلف إلى السيارة مترنحًا حتى إنه أغلق الباب على إصبعه دون أن يشعر بالألم. أدار المحرك عائدًا إلى الفندق، فإذا بسيارة تضيء أضواءها المبهرة تمر من جانبه. التفت إليها، اندهش، ارتجف قلبه عندما اكتشف وجود «رشا» بجمالها الساحر الأخاذ خلف المقود، نظرت إليه بعينيها الواسعتين الفاتنتين و هى تزيح شعرها المرسل الطويل خلف ظهرها!.. معقول!.. ما الذى أتى بها إلى هنا فى هذه الساعة؟..

اندفع بسيارته يتابع أضواء سيارتها الحمراء و هو يتساءل: هل رضى الله عنه أخيرًا فقرر أن يجمعهما معًا فى هذه الصحراء؟.. اندفعت «رشا» بسيارتها إلى عمق الصحراء و هو خلفها يتمنى لو أنهما يتوهان معًا فى مكان بعيدًا عن الناس، فيضمها إلى قلبه ليبعث فيها الحب و الحياة.

انطلقت «رشا» بسيارتها بسرعة كبيرة حتى تلاشت الأضواء الحمراء. ضغط على دواسة البنزين إلى أقصاها بحثًا عن أضواء سيارتها حوله فى كل اتجاه. اتجه يمينًا فلم يجدها، يسارًا فلم يجدها، قفل عائدًا للخلف دون جدوى، ضغط على دواسة الفرامل بقدمه المرتعشة و انفجر فى بكاء عنيف وسط ظلام الصحراء الدامس.

شعر بشىء ما يتحرك بالقرب من السيارة، التفت فإذا بها حيوانات ضخمة لها وجه بشر ممسوخ ما بين الإنسان و القرد،

أرجلهـا مثـل أرجـل الجـوارح، يتقافـزون حـول السـيارة و فوقهـا، ثـم أهالـوا عليهـا التـراب مـن كل جانـب.

●●●

(٤)

لم يستيقظ إلا ظهر اليوم التالى. وجد نفسه فى السيارة مكتوف الأيدى فوق صدره، أشعة الشمس الدافئة تدب فى أوصاله فيستسلم لها فى خمول و كسل، لا يريد أن يتحرك كأنه أصبح تمثالاً من الصخر. الألم يعصف بكل خلايا جسده، الصحراء تحيط به من كل جانب، عقله عاجز عن التفكير فى أى شىء، عيناه لا ترى سوى وجه «رشا»...

اكتشف أنه عندما رآها بالأمس كانت ما تزال كما هى، فى أوج نضارتها و شبابها رغم مرور خمسة و عشرين عامًا، فتأكد أن ما رآه بالأمس ما هى إلا أوهام الخمر، ليتها كانت حقيقة!.. ليته شبحها، من المؤكد أن الحياة مع شبحها أو روحها ستكون هى الجنة ذاتها، ليتها كانت جنية على نفس صورتها ليستسلم لها إلى الأبد ليتوه فى عالم الحب.. لكنه وحده فى الصحراء بلا أى ونيس و لا صديق و لا حتى عدو.

إن كانت أوهام الخمر فلماذا يضلنى اللّه؟ أحاول و أسعى جاهدًا للتقرب إليه لعله يرحمنى، لكنه دائمًا و أبدًا يضلنى حتى فى شيخوختى.

طفرت الدموع من عينيه عندما تذكر تلميذه «سعيد» و هو يقول له: ارحمنى. لقد أعد هذا الطالب فى السنة الأولى له فى المعهد لحنًا جيدًا حتى شعر أنه من الممكن أن يخطف منه الأضواء والشهرة و المجد خلال سنوات معدودة، فأوهمه بأنه لا يبغى سوى مصلحته حتى حصل منه على أصل النوتة، ثم مزقها و بعد أن أوهمه بأن لجنة المعهد رفضت اللحن قال له فى حنان أبوى: لا تقلق الطريق مازال طويلاً. أصبح بعد ذلك يضطهد هذا الشاب ويتعمد ترسيبه فى الامتحانات حتى فُصل من المعهد. آخر كلمة سمعها منه: ارحمنى. لكنه لم يرحمه.

لم يرحم «سلمى» عندما بدت عليها بوادر العجز بعد أن تاهت فى دوامة إدمان ابنها، لم يرحم ابنها أيضًا. كان يتعمد أخذها من ابنها ليرضى شهواته و غروره و يتلذذ بذلك. كان يستغل حبها لتمجده فى مقالاتها، كثيرًا ما سخرها فى الهجوم على منافسيه فتفضح أسرارهم الشخصية متعمدة إثارة كره الناس و سخطهم عليهم.

الملحن الوحيد الذى صمد أمامه و نافسه و هو فى أوج مجده هو «ياسر عبد الحميد». لم يجد شيئًا يفعله مع هذا المنافس العنيد، فاستغل علاقات صديقته «سلمى» و علاقته الطيبة مع نقيب الموسيقيين لإرساله فى بعثة إلى روسيا لدراسة الموسيقى الكلاسيكية. أوصله بنفسه إلى المطار مودعًا و هو يقوله له: أحسدك مقدمًا على دراسة الكلاسيكيات.

طـار «ياسـر» إلـى روسـيا و ضـاع بـين الكلاسـيكيات الغربيـة والشـرقية، ثـم أدمـن الفـودكا و فتيـات الهـوى باكيًـا علـى طموحاتـه، نادمًا علـى هجـرة وطنـه.. لـم يتـرك أحـد يعمـل فـى التلحـين سـوى بعـض السـفهاء التافهـين يـدورون فـى فلكـه. حتـى هـؤلاء لـم يتركهـم إلا لكـى يظهـر موهبتـه و عبقريتـه، فأصبـح موسـيقار العصـر بـلا منـازع..

اشـتد نحيبـه و هـو يقـول فـى نفسـه: أبعـد كل ذلـك تطلـب الرحمـة مـن اللّه، إنـك لإنسـان وقـح.. لكنـه تعهـد بغفـران كل الذنـوب إلا أن يُشـرك بـه شـيئًا، و أنـا لـم أشـرك بـه أحـدًا أبـدًا. قـال الرسـول صلـى اللّه عليـه و سـلم: قـل لا إلـه إلا اللّه ثـم اسـتقم.. هـل اسـتقمت؟!.. المهـم أننـى لـم أشـرك بـه أحـدًا، أتمنـى أن أكـون مؤمنًـا مطيعًـا لكنـه يضلنـى دائمًـا وأبـدًا.. إنهـا حكمتـه أليـس بيـده كل شـىء؟ أليـس أقـرب إلـىَّ مـن حبـل الوريـد؟.. إذًا طموحاتـى و أحلامـى، حتـى أفـكارى الشـيطانية لا يبثهـا فـى صـدرى و عقلـى إلا اللّه.. أيضلنـى ثـم يعاقبنـى؟...

حـل يديـه مـن فـوق صـدره فطقـت كل عظامـه، يتمنـى أن يظـل سـاكنًا هكـذا إلـى الأبـد، لكـن هـذا مسـتحيل. هبـط مـن السـيارة يتأمـل الصحـراء الشاسـعة مـن حولـه. أيـن الطريـق إلـى الواحـة أو جبـل الدكـرور؟.. عـاوده الأمـل عندمـا اكتشـف أنـه لابـد أن تكـون هنـاك علامـات لعجـلات السـيارة فيعـود مـن حيـث أتـى.

بعد أن اطمأن للفكرة صنع لنفسه سندوتش من الجبن مع جرعة من الوسكى. الخمر يلهب الخيال و يعمل العقل و هو فى أشد الحاجة الآن إلى إعمال عقله. أدار السيارة متتبعًا الأثر، قال فى نفسه: يا فرج الله.. وصل إلى واد ضيق، من جهة اليسار تهبط الأرض فى جرف حاد بضعة أمتار إلى الأسفل، ثم صحراء جافة أرضها متشققة بلا أى أثر للعجلات... لابد أنه أتى من خلف هذا الجبل، دار حوله ليجد صحراء موحشة مترامية الأطراف خالية من أى حياة و من أى أثر.

عب من زجاجته، دار ببصره يتأمل المكان، ما الحل؟ أين الطريق؟ شعر بعيون ما ترقبه، التفت ليجده ثعلبًا.. خوفًا من أن يصبح سجين السيارة ضغط على دواسة البنزين متجها إلى هذا الحيوان البرى المتوحش، دهسه، شعر ببعض الأمان عندما رآه غارقًا فى دمائه.. هبط من السيارة عائدًا إلى الجبل بحثًا عن الأثر، دار حول الجبل من الجهة الأخرى، صحراء مترامية الأطراف.. ابتسم عندما اكتشف على مرمى البصر بضعة منازل.

تقدم يحث الخطو، من المؤكد أنهم يعرفون المكان جيدًا، سيعودون به إلى السيارة و يصفون له الطريق، و ربما أرسلوا معه من يرشده إلى الطريق السليم. بعد أن مشى أكثر من ساعة رأى شق ضيق يخفى وراءه جبل آخر.. تجاويف الجبل تبعث فى نفسه

الخوف و الرهبة.. من بين التجاويف ظهر له ثعلب آخر يرقبه بنظرات حادة كأنه يستعد للهجوم، ترك لساقيه العنان متخفيًا خلف الكثبان الرميلة و داخل الشقوق الصحراوية، خرج بعد أن التقط أنفاسه ليجد نفسه فى مكان آخر مختلف تمام الاختلاف.. بكى من أعماق قلبه لكنه لا يستطيع التوقف و لا يعرف إلى أين.. فى لحظة الغروب اكتشف أنه يسير فى اتجاه الغرب، فقال فى نفسه: الخير فيما اختاره الله.

بعد أن اختفت الشمس فى الصحراء ببضعة دقائق رأى نخلة، جلس تحتها يهده الإرهاق، متورم القدمين، كل عضلات جسده تؤلمه، البرد القارس ينخر فى جسده، شعر بشىء ما تحت يديه، التقطه فإذا بها تمرة متساقطة. أكلها بترابها، فكانت أطيب شىء تذوقه فى حياته، فراح يبحث عن بقية التمر و يلتهمه بشراهة.. حاول إرخاء عضلاته لإراحة جسده المكدود.. صورة «رشا» لا تفارقه أبدًا، ترى أين هى الآن؟ هل تذكرنى؟ إن كانت لا تشعر بكل هذه المشاعر النبيلة فلابد أن هناك خطأ ما. أين الخطأ؟ فىَّ أنا أم فيها هى؟!

تمشى بخطوات ثقيلة كأنها ملكة متوجة و على الجميع تقديم فروض الولاء و الطاعة، تعتقد أن كل من تنظر إليه يجب أن يلقى بنفسه تحت قدمها. تمتم قائلاً لنفسه: و لتكن الملكة

«رشـا»، جميـع الملـكات مكروهـات ملعونـات فـى كل زمـان و مـكان، حتـى فـى الآخـرة...

شـعر بقرصـة حـادة فـى قدمـه اليسـرى، فـدوت الصرخـة تجلجل فـى الصحراء...

●●●

(٥)

فتح عينيه بصعوبة. شعر بذقنه الطويلة تحتك بالغطاء الصوف الخشن. النيران تنبعث من جسده، العرق يتفصد منه بغزارة، حلقه جاف متشققًا مثل الصحراء، ألم حاد عنيف يضرب قدمه اليسرى. اكتشف أنه ينام على فراش خشن مترب مفروش على الأرض. جال ببصره ليجد نفسه فى بيت بدوى بدائى، الحوائط من الطين، فوقه نافذة صغيرة بالقرب من السقف تدخل منها أشعة الشمس فى معاناة، فى الحائط المواجه باب يُفتح على الصحراء، وجد على الأرض فرائين لماعزين، على اليمين زير من الفخار مغطى بقطعة فخارية عليها كوب من الفخار، الزير يتوسط بابين خشبيين.

دلف من الباب شيخ عجوز له لحية كثيفة بيضاء، ابتسم له فى سماحة و هو يجلس بجواره و يضع له الطعام، فأدرك أن هذا الشيخ هو الذى أنقذه من لدغة العقرب.. عاونه على الجلوس فشعر بقوة ذراعيه رغم سنه الكبير، العروق تتمد فى خشونة حول يديه و رقبته، التجاعيد تغطى كل وجهه كأنه تجاوز المائة عام، بينما لمح فى عينيه بريق الشباب و الحيوية.. عاونه الشيخ على شرب الحليب من كوب من الفخار، عاونه على الأكل. ابتلع

الطعام دون أن يتذوقه. ثم عاونه على التمدد فى الفراش و هو يشير إليه بأصابعه بعدم الكلام أو الحركة.. ثم انصرف بخطوات خفيفة كأنه يطير فوق الأرض حتى لا يزعج ضيفه.

راح «محمد» يتأمل السقف المصنوع من جذوع أشجار النخيل والزيتون محاولاً الخلود للراحة بعد أن اطمأن لوجود إنسان حى فى هذه الصحراء القاحلة.. صورة وجه «رشا» لا تفارقه أبدًا كأنها روح هائمة تسيطر عليه.. تذكر يوم قابلها ساعة هطول المطر، خشى عليها من المطر فسحبها أسفل إحدى البلكونات محاولاً التودد إليها و التقرب منها، كانت ترتدى قميصًا خفيفا من القطن فى لون النبيذ يكشف عن جزء من صدرها الأبيض البض، يتمنى لو أن يخفى رأسه فى هذا الصدر و يسمع نبضات قلبها و لو مرة واحدة فقط فى حياته، و لا يهم ما سيحدث بعد ذلك. لم يشعر بما يدور حوله فى الشارع، لم يسمع صوتًا إلا صوتها، لا يرى شيئًا سوى جمالها.. خدر لذيد يسرى فى كل خلايا جسده. رأى فى عينيها نظرات المرح و الدلال فاستبشر خيرًا. كانت تتعمد بنظراتها العبث بأوتار قلبه الذى يرفرف فى صدره طربًا و نشوة، فقال فى نفسه: و ماذا فى ذلك؟ من حقها أن تعبث بأوتار قلبى و تشعر بأنوثتها، القلب و الوجدان وكل المشاعر الرقيقة ملك خاص بها تفعل بهم ما تشاء. ضحكت فارتجف كل كيانه... و ما أن هدأ المطر حتى انسحبت و تركته

بينما رأسه يدور كأنه قد شرب زجاجة وسكى بأكملها... و راح يحلم و يمنى نفسه بقرب المحال...

لم يشأ العودة إلى المنزل، ذهب إلى أحد أصدقائه و راحا يتمشيان معًا فى شارع البحر الذى كان يهدر فى ثورة عارمة، الأمواج تتقافز فى عنف حتى تخرج إلى الأسفلت، راح يجرى تحت البلكونات هربًا من المطر و رذاذ البحر و هو يضحك من كل قلبه. تعجب الصديق من أمره، رآه فى الصباح بائسًا حزينًا، ثم رآه فى المساء مرحًا سعيدًا، لم يخبره بأبواب الجنة التى فُتحت له، بل وقف متحديًا الأمواج العاتية و هو يصرخ محدثًا البحر فى نشوة:

ـ أيها البحر العظيم، إن كنت عنيدًا فأنا لا ألين، و إن كنت جبارًا فأنا البطل المغوار، و إن كنت رقراقًا شفافًا فأنا رمز الحب والعفاف.

ضربه صديقه على رأسه مازحًا و هو يقول:

ـ مجنون بحر.

هتف من أعماقه: بل مجنون «رشا» الجميلة.

بعد يومين استرد عافيته، خرج من البيت الصغير ليجد الشيخ يرعى بعض المزروعات النابتة حول الدار، بضعة نخلات و بضعة شجيرات زيتون و بعض أشجار التين و الصبار، فى ركن قصى بعض الخراف و الماعز. تعجب كيف يكون هذا الشيخ الطاعن فى السن بمثل هذا النشاط و الحيوية..

فى ساعة العصر جلسا يأكلان معًا على عتبة الدار. لم يكن الطعام سوى جبن قريش و زيتون و بلح. رغم أنه تذكر الولائم الفاخرة التى كانت تُعد خصيصًا له إلا أنه اكتشف مدى حلاوة ونقاء هذا الطعام البسيط، قال ذلك للشيخ فرد عليه:

ـ طبعًا يا ولدى، هنا أطهر و أطيب أرض فى العالم كله.

سأل فى دهشة:

ـ لماذا؟

راح العجوز يقص عليه قصته: أنا من إحدى الواحات البحرية. حقيقة لا أعرف إن كانت قريبة أو بعيدة من هنا. كان من المُفترض أن أتزوج ابنة عمى رغم أنفى على حسب تقاليدنا الصارمة، لا يهم رأيى و لا رأيها، البنت لابن عمها مهما كانت الظروف. لكنى أحببت «زينب» التى كانت من عائلة أخرى. كنت أخرج للصحراء أمكث بها أيام و ليال طويلة أجمع الترفاس لأبيعه لتاجر من واحة سيوة ليبيعه بدوره لتاجر آخر فى مرسى مطروح. فى هذه الرحلات لم أكن أفكر فى أحد غير «زينب». أحلم بها طوال الليل و أراها أمامى طوال النهار. حاولت أن أثنى تفكيرى وأحول مشاعرى ناحية ابنة عمى، لكنى فشلت، فأروح أفكر طوال الليل فى الهدية التى سأعود بها إلى «زينب» رغم أنها تؤكد لى بأنها لا تريد الهدايا. تودعنى باكية و هى تدعو لى

بالتوفيق، تحذرنى من متاهات الصحراء، تجبرنى على أن أقسم لها بألا أغامر فى الصحراء البعيدة، ثم تبكى و هى تقول: لو حدث لك مكروه سأموت كمدًا.

حاول أبى إقناعى بالزواج من ابنة عمى أولا ثم الزواج من «زينب» بعد ذلك، العادات عندنا تسمح للرجل بالزواج من أربع نساء، بل تشجع على ذلك، فالرجل البخيل عندنا يتزوج من امرأه واحدة فقط. لكنى رفضت هذا الاقتراح بشدة، شعرت أن زواجى من ابنة عمى سيجرح شعور «زينب» و أنا لا أستطيع فعل ذلك أبدًا. لكن عدم زواجى من ابنة عمى يُعتبر فضيحة فى العائلة، سيتساءل الناس لماذا تركها ابن عمها، سيكون هناك خلافات حادة بين أبى وعمى. أمام إصرارى على الزواج بـ «زينب» طردنى أبى من البيت، وتطوع أخى الأصغر للزواج من ابنة عمى حفاظًا على شرف العائلة بين الناس. بنيت لنفسى بيتًا على بعد بضعة أمتار من الواحة، وتزوجت «زينب» رغم أنف الجميع.

مرت ثلاث سنوات دون إنجاب، كانت عاقرًا و العاقر عندنا لا تستحق الحياة.. حاول كل أفراد العائلة تزويجى بأخريات لأنجب الأولاد، حتى «زينب» نفسها أصرت على أن أتزوج بغيرها، لكنى رفضت بشدة. إنه مرض رغم أنفها، كيف أهجرها و أعاقبها على شىء ليس بيدها؟.. إن كان الحساب بين الزوجين بمثل

هـذه الدقـة و الصرامـة لـكان مـن الواجـب أن أكافئهـا علـى حبهـا وإخلاصهـا، أعوضهـا عـن غيابـى عنهـا أيـام و ليـال طويلـة فـى جـوف الصحـراء، أعـود لأجدهـا ذابلـة شـاحبة قلقًـا علـىَّ. تحـرم على نفسـها المأكـولات التـى أحبهـا بدونـى.. فـى فصـل الصيـف عندمـا يتوقـف موسـم جمـع الترفـاس تشـح فـى يـدى النقـود، يتعكـر مزاجـى و يسـتبد بـى القلـق، فأجدهـا نعـم العـون، تتعمـد الكلمـات الحلـوة الهامسـة فـى موسـم الصيـف، تكـون ألطـف و أرق فـى معاملتـى حتـى يـزول قلقـى.

نبذنـا كل أفـراد الواحـة، وصفونـى بالمخبـول، اتهموهـا بأنهـا سـحرت لـى حتـى أصبحـت لا أسـتطيع الحيـاة بدونهـا، فوصفوهـا بالسـاحرة الخبيثـة، بالرغـم مـن كل ذلـك تـدارى دموعهـا و حزنهـا عنـى حتـى لا تزيـد المشـاكل بينـى و بـين أهـل الواحـة..

تذكـرت إننـى أسـمع عـن مـكان بعيـد فـى جـوف الصحـراء تنتشـر فيـه نباتـات الترفـاس. قـررت الذهـاب إليـه منـذ أول يـوم مـن الموسـم لجمـع أكبـر قـدر ممكـن، ثـم أسـافر لبيعهـا فـى مرسـى مطـروح بنفسـى لأحقـق أكبـر قـدر مـن الربـح.. لابـد أن أجعلهـا سـيدتهم، لابـد أن يحترمهـا الجميـع رغـم أنفسـهم، سـأجعلها ملكـة الواحـة، صارحتهـا بأحلامـى، حاولـت كثيـرًا أن تثنينـى عـن هـذه المغامـرة المجنونـة بـلا جـدوى.

رحلت إلى الأراضى البعيدة المجهولة، مكثت هناك شهرين، عدت و معى كميات كبيرة من الترفاس، سأعيد إليها كرامتها وأجعلها ملكة.. لكنى عدت لأجد الدار خاوية مهجورة. سألت عنها الناس فردًا فردًا، أجمع الكل على أن القلق استبد بها فخرجت لتبحث عنى.. قفزت بينهم كالمجنون: كيف تخرج للصحراء و هى لا تعلم عنها شيئًا؟

عدت أبحث عنها فى كل مكان، فى كل جب، فى كل شبر إلى أن تهت و أصبحت لا أعرف مكانى. بعد شهر و نصف وصلت إلى هنا لأجدها قد أصبحت هيكلاً عظميًا، تأكدت أنها هى «زينب» عندما رأيت الكردان الذى كنت قد أهديته لها العام الماضى... فحفرت لها قبرًا و قررت أن أظل هنا حتى الموت..

فى أثناء صلاة العشاء تلا الشيخ القرآن بصوت رخيم شجى حتى بكى «محمد» و هو يصلى خلفه. بعد الصلاة حذره من دخول هاتين الحجرتين قائلاً: لن تجد راحتك فى هذه الدار إلا هنا ثم تركه و دخل إحدى الحجرتين لينام.

بدأ الصداع يداهمه، يضرب رأسه بشدة من الخلف. أين السجائر؟ أين القهوة؟ أين الخمور؟ إنه لا يفيق إلا بعد فنجان القهوة الثانى، فى أثناء النهار لا يدخن أقل من ثمانين سيجارة، وفى الليل لا ينام إلا ثملاً.. إنهم أسلحته التى يواجه بها الوحشة والغربة. إنه الآن فى أشد الحاجة إلى هذه الأسلحة لمواجهة

جحافل الحزن و الآلام التى تحاصره فى هذه الصحراء اللعينة بلا رحمة... ذكريات الإسكندرية أليمة، ذكريات القاهرة مريرة، و لا يبدو أى بادرة أمل فى المستقبل القريب أو البعيد.. لا يحب الإنسياق وراء الأحلام خوفًا على عقله من الجنون، خصوصًا أن لديه شعور أكيد بأن نهايته لن تكون طبيعية أبدًا، إما مجنونًا أو منتحرًا. لقد تعود منذ أيام المراهقة و الصبا على انهيار كل أحلامه. ما من شىء يحلم به إلا يهرب منه، ما من شىء يحبه إلا يُسرق منه، و عندما يتوجه إلى الله ضارعًا باكيًا لا يستجيب الله لأى من دعواته. فكيف يترك نفسه للأحلام التى يثق تمامًا بأنها لن تتحقق؟! ..

إنه اليوم أعزل تمامًا فى هذه المواجهة القاسية، لابد من الأحلام لينام بضع ساعات، فتذكر وجه «رشا» الرائع الحسن، وتخيل نفسه فى أحضانها يستمتع بنبض قلبها و يبثها لواعج نفسه التائهة.

بعد أن خرجت الروح من الجسد لتهيم فى ملكوت الله تسبح بحمده، رأى أشجارًا خضراء كثيفة حتى أن ضوء الشمس لا يصل إلى الأرض إلا خافتًا، الأرض داكنة تكسوها الأعشاب الخضراء، تحت ظلال الأشجار مبنى صغير بنى اللون تتسلقه نباتات مزهرة تبعث عطرها فى كل المكان..

●●●

(٦)

عندما خرج «محمد» من الدار شعر بالخجل من نفسه، الشيخ الطاعن فى السن استيقظ منذ الفجر و راح يعمل فى الأرض بنشاط، بينما هو لم يستيقظ إلا بعد أن نشرت الشمس أشعتها الدافئة فى كل مكان ليجد إفطارًا جاهزًا بجوار الفراش، تقدم محاولاً المساعدة، سعد الشيخ بهذه المبادرة فربت على كتفه قائلاً: بارك الله فيك يا ولدى. طلب منه أن يملأ الدلو من عين الماء ويسقى الجزء الغربى، فالأشجار هناك كبيرة و لا تحتاج إلى مياه كثيرة.

عندما ذهب إلى عين الماء الوحيدة الموجودة هنا، وجدها صافية رائقة، ليست عميقة. جال ببصره، صحراء قاحلة مترامية الأطراف، سبح بحمد ربه الذى فجر هذه العين هنا ليمتد العمر بهذا الرجل، شعر بكثير من الأمان عندما تذكر قصة عين زمزم التى انفجرت فى صحراء قاحلة ليحيا سيدنا «إسماعيل» فيصبح طائعًا طاعة عمياء لربه و لأبيه، رحمة الله واسعة، تشمل كل شىء ولابد أن تشملنى أنا أيضًا فى يوم من الأيام.

عندما ملأ الدلو و شعر بثقله تأكد من تفاهته مقارنة بهذا المُعمر العتيق الذى لا يكل و لا يتعب، ارتجفت كل عضلات ذراعيه وصدره بعد أن روى أربع شجيرات فقط، فابتسم الشيخ قائلاً:

ـ الزراعة هى أفضل مهنة يعملها الإنسان.

تعلم من الشيخ أن أطهر أكل فى الدنيا هو ما يأكله الإنسان من عمل يديه. لقد خلق الله هذا الكون و خلق الإنسان ليعمره، من يعمر أكثر يكسب أكثر فى الدنيا و الآخرة، و من يخرب أكثر يخسر أكثر فى الدنيا و الآخرة. الزراعة هى العمار بعينه حتى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم حثنا على زرع الفسيلة حتى أثناء الموت. تعلم من الشيخ النشاط و الأمل فى رضا الله مهما كانت الذنوب.

اطمأن الشيخ أيضًا لوجود «محمد» معه، شعر بأن الله وهبه الابن أخيرًا، إنه الوريث الشرعى لهذه الأرض و ما عليها، و من رحمة الله أنه لم يهبه هذا الوريث إلا بعد أن أصبح يملك هذه الأرض الطيبة المباركة، إنها أرض الوفاء و الإخلاص، أرض الرحمة و المحبة. علمه الشيخ طريقة حساب الزمن فى الصحراء، علمه كيف يحدد مواقيت الصلاة من خلال ظل العصا التى يغرسها فى مكان بعيد عن الأشجار.

بعد صلاة العصر استحم الشيخ من عرقه و جلس يقرأ القرآن، جلس «محمد» بجواره مرهقًا خائر القوى. كان الشيخ فى الجزء الأخير من سورة البقرة، حتى وصل إلى «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت، و عليها ما اكتسبت». انفجر فى

البكاء قائلاً فى نفسه إلا أنا، يكلفنى مالا طاقة لى به. أغلق الشيخ المصحف قائلاً:

ـ ألا تستطيع نسيان أحزانك بعد كل هذا المجهود؟

ـ إن جذورها متوغلة العمق فى صدرى.

أدرك الشيخ بفطنة المؤمن ما يجيش فى صدره، أسند «محمد» رأسه إلى الحائط و هو يقول كمن يحدث نفسه:

ـ كنت أعرفها جيدًا، كانت أرق من النسيم، ألطف من الملائكة، و أجمل من كل الورود، كنت لا أفكر فيها لأننى أرى نفسى لا أستحق كل هذه الرقة و البراءة. كنت أحسد من سيرتبط بها وتشاركه حياته. لكننى فجأة فكرت فيها لنفسى، لما لا؟ لن تجد فى الدنيا إنسان يقدرها حق قدرها أكثر منى بالرغم من جمالها الباهر و قبح منظرى. قلت فى نفسى إن «إزميرالدا» فى رواية «نوتردام» شعرت بالأحدب المجنون الجاهل بينما نفرت نفورًا شديدًا من الراهب المثقف المتعجرف بسلطته و جاهه. حاولت الاقتراب منها وكلى أمل. إن رفضت هذا الحب فإنها سترفض بأسلوب مهذب راق يتناسب مع براءتها. لكننى فوجئت بها شيئًا آخر. مجرد تمثال رومانى بديع الصنع رائع الحسن، لكنه فى النهاية مجرد حجر خال من أى روح.

قال الشيخ فى هدوء كأنه يعرف بقية الحكاية:

ـ كان يجب أن تتركها لحال سبيلها. الحديث يقول: «الأرواح جنود مجندة، ما تشابه منها ائتلف و ما تنافر منها اختلف».

ـ تركتها لحال سبيلها، لكنها لم تتركنى لحال سبيلى، كانت تتعمد العبث بكل مشاعرى لأظل أجرى خلفها، إذا اقتربت منها سنتيمترًا واحدًا ابتعدت عنى أميالاً، و إذا ابتعدت عنها تأتى إلىّ، الغريب فى الأمر أنها ليست وحدها، بل هى و عائلتها على نفس الشاكلة.

ـ إذًا أنت عاشق المُحال.

ـ كلا. كل ما فى الأمر إن بداية تفكيرى فيها تصادف مع ظهور أول ألحانى للنور، فتفاءلت خيرًا، كما تصادف فى نفس الوقت أننى كنت ملتزمًا فى أداء الصلاة، دعوت الله و استخرته، فهو أقرب إلىّ و إليها من حبل الوريد، و أنا لا أطلب حرامًا. قلت فى نفسى أننى لا أتعامل إلا مع الله مباشرة، لو كان كل الناس فى الدنيا غدارين فمن المستحيل أن يغدر الله بالعبد الذى يلجأ إليه.

قال الشيخ مؤكدًا:

ـ هذا صحيح، لكن الله يمكر بعباده ليختبر إيمانهم وأخلاقياتهم.

أكمل «محمد» كأنه لم يسمع شيئًا:

ـ فى ذات يوم رأيتها حزينة مهمومة نتيجة لخلافات بين أبيها و والدتها. كان والدها رجل شهوانى، على استعداد لفعل أى شىء مهما كان حقيرًا فى سبيل إشباع شهواته، لا يهمه أبدًا ما سيحدث بعد ذلك، حتى لو كانت زوجته المخلصة هى التى ستدفع الثمن، حتى لو كانت ابنته ستنهار بسبب نزواته، يرى أن الرجل القوى هو الذى يشبع غرائزه. أردت فى هذه اللحظة الذهاب إليها و مداعبتها لأخفف عنها. بدأت فى هذه الأيام أحاصرها من كل ناحية. كنت أريد أن أشعرها بأننى سأظل بجانبها إلى الأبد مهما حدث، كنت أريد خطفها من هذا الجو الخانق المشحون بالتوتر، براءتها و رقتها لا تحتمل كل هذا الألم. أعلنت أمام الجميع أننى لا أريد أحدًا غيرها، فإذا بها تعلن أمام الجميع دون أن تسمع منى كلمة واحدة بأننى لست الإنسان الذى فى خيالها.. كيف طاوعها قلبها على النطق بهذه لكلمات و هى تعلم أننى لا أبغى سوى التعبد فى محراب حبها أو الفناء فى أحضانها؟!

ـ لا تحبك.

ـ الأغرب، أننى ابتعدت عنها تمامًا بعد قولها هذه الكلمة، فإذا بها تحاول الاقتراب منى كأن شيئًا لم يحدث.

ـ من لا يعرف تأثير الكلمة لا يستحق أن يُسمى إنسانًا، لقد خلق الله الكون كله بكلمة واحدة.

ثار «محمد» مدافعًا:

ـ بل إننى واثق من رقتها و براءتها. المشكلة تكمن فى والدها، كان ممن يطلقون عليهم تاجر حقيبة، يشترى أرخص البضائع من شوارع أوروبا، يتذلل لموظف الجمرك، لا مانع عنده من تقبيل يد وقدم فراش وضيع فى الجمرك حتى يشعره بأن بيته سيُخرب بدون هذه البضائع، و ما أن يخرج من البوابة حتى يتحول إلى إنسان آخر، يبيع بضاعته لأشخاص مرموقين بعد إقناعهم بأنه لا يبيع لهم إلا أفخم الأنواع و أرقى الماركات العالمية. كان نموذجًا مثاليًا للتاجر الحديث، يرى أن التاجر الذى يعطى للناس حقوقهم ما هو إلا تاجر غبى، التاجر الذكى يأكل حقوق الناس بالباطل ثم يتهم من سرقهم بالسرقة ظلمًا و عدوانًا. الغريب أنه لا يدارى ذلك، بل يفتخر بأنه بهلوانًا يجيد اللعب على كل الحبال، حتى أصبح كل الناس يعرفون أنه عندما يقول لأحد: أنا أحبك، فهذا يعنى أنه يدبر له مكيدة ستقضى عليه. حاولت كثيرًا انقاذ ابنته البريئة منه، لكنها للأسف كانت مطيعة لوالدها طاعة عمياء حتى تحولت إلى كتلة متحركة من المكر و الخبث، بينما تعلمت أنا من والدتى أن الإنسان الذى لا يجد عنده شيئًا يمنحه للناس لا يستحق الحياة.

قال الشيخ و قد شعر بعاطفة الأبوة:

ـ الحديث يقول «اختاروا لأنسابكم فإن العرق دساس»، تقول أن أباها يستحل لنفسه سرقة عملائه، مهما أحسن تربيتها فلقد رباها بأموال حرام. إنها بذرة خبيثة تنبت فى أرض خبيثه ثم ارتوت بمياه عكرة، كيف تتوقع جنى الورود؟

قال «محمد» فى صبر نافد:

ـ قلت لك أننى لا أتعامل مع الناس، إننى أتعامل مع الله، لماذا يسلطها الله علىّ بعد أن لجأت له، والله يعلم أن نقطة ضعفى الوحيدة هى نبض قلبى؟

ـ لأنك عبدتها.

برقت عينا «محمد» فزعًا:

ـ أنا لم أسجد إلا لله.

قال الشيخ فى هدوء:

ـ ألم تلاحظ أنك لم تذكر لى اسمها حتى الآن؟ إنك تقدسها.

قال «محمد» مرتجفًا:

ـ «رشا».

قال الشيخ فى غضب:

ـ إنك ترتجف لذكر اسمها مثلما يرتجف العبد المؤمن لذكر اللّه.

تكوم «محمد» بجوار الحائط مرتعدًا من تهمة الشرك باللّه، فقال الشيخ مبتسمًا:

ـ اقرأ القرآن يا ولدى، صلى و استغفر ربك و ارضَ بما قسمه لك.

هم «محمد» بالحديث فأشار إليه الشيخ بالصمت و هو يقول:

ـ لا تقل شيئًا. إن اللّه حليم ستار، أعرف ما حدث بعد ذلك من نزوات و طيش و جنون، التمرد على إرادة اللّه واضح فى نظرات عينيك الزائغة.

تعلم «محمد» من الشيخ قراءة القرآن و المواظبة على الصلاة، تعلم منه التسابيح و الإيمان بالقدر، تعلم أن مكر اللّه ليس له غالب. فى مرافقة هذا الشيخ فى قلب هذه الصحراء اعتاد الحياة بلا قهوة، بلا سجائر، بلا خمور التى كان يراها اكتشافًا سحريًا لا غنى عنه لمواجهة الأحزان، أدرك أنها لم تكن مواجهة أبدًا، بل هروب إلى عالم الذنوب و الآثام. اندهش عندما رأى روحه تهدأ بلا خمور، و قدرته على التركيز تزداد بلا سجائر أو قهوة.

و فـى ذات يـوم اسـتيقظ فـى لحظـة الفجـر، جلـس وحـده فـى البهـو منتظـرًا خـروج الشـيخ كمـا تعـود، لكـن الشـيخ تأخـر، راح يرقـب بـاب حجرتـه فـى خـوف، لقـد أكـد عليـه ألا يقـرب هاتـين الحجرتـين. طـال انتظـاره، نفـذ صبـره، فتـح بـاب حجـرة الشـيخ بيـد مرتجفـة. الأرض مـن التـراب، بهـا فوهـة صغيـرة يتدلـى بداخلهـا سـلم خشـبى، نظـر داخـل الحفـرة ليجـد الشـيخ مسـجيًا ميتًـا.. صلـى عليـه ثـم دفنـه بينمـا الهلـع ينهـش قلبـه. دفعـه الفضـول لكشـف سـتر الحجـرة المجـاورة، فوجـد بهـا قبـر زوجتـه الوفيـة «زينـب».

●●●

(٧)

عاد مرة أخرى إلى تيه الصحراء اللامتناهية. هجر الدار بعد أن وجد نفسه وحيداً بين مقبرتين. فهو لا يفزع من شيء بقدر ما يفزع من الموت.. لو كان الموت فناء تام ثم لا شيء بعد ذلك لكان ذلك رحمة كل الرحمة، لسعى إليه بكل رضا و سعادة، المشكلة بل المعضلة الكبرى فى مواجهة الذات الإلهية. كيف سيواجهه ربه وحيداً و هو مثقل بالذنوب محاط بأرواح ضحاياه يشهدون عليه؟ حتى هذا الجسد اللعين المفعم بالنشوة سيشهد عليه، سيتعلل بقلبه الجريح المريض.. بيد أن القلب سيتنكر له ويشهد عليه.. لقد عوضك الله بـ «سلمى» فلم تحافظ على النعمة.. أى إنسان هذا الذى يستطيع مواجهة رب العالمين؟!... إذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يبكى و يرتجف هلعًا من هذه المواجهة فكيف سيكون الحال بالنسبة لإنسان مثلى؟!...

فكرة الموت تسيطر عليه منذ الأزل، منذ أن كان طفلاً صغيرًا. يقولون أن الموت هو البوابة الأولى للفلسفة، و هو أيضًا الدافع الأول الذى يدفع المبدع ليجود و يبدع محاولاً قهر هذا الوحش البغيض. بعد تجربته مع التمثال الرومانى «رشا» راودته كثيرًا فكرة الانتحار، أصبح يبحث عن أية أفكار سوداوية تبرره و تحلله، إنه لجوء إلى الله الرحمن الرحيم.

فر هاربًا من «رشا» و من الموت إلى القاهرة، إلى أن تعرف على «سلمى» التى ما أن علمت بهذه الهواجس المخيفة حتى أصبحت لا تفارقه، تبثه حب الحياة، تدفعه دفعًا إلى الإبداع والنجاح ثم هجرها فى النهاية بعد أن شاخت و كثرت مشاكلها هى و ابنها المدمن.

جال ببصره فى المكان، لا شىء غير الرمال الصفراء، الأرض مشققة، قدماه متورمتان، يلهث وراء أى نقطة ماء أو أى شىء يؤكل، إلى أن رأى شجرة صبار ضخمة. يعرف أن هذا النبات التعيس لا يخزن بداخله إلا عصارة مرة، لكنه ماء على الأقل. جرح جذع الصبار بحجرة فسالت العصارة، مسحها بإصبعه ولعقها، انتفض كل كيانه للمرارة، لا يوجد شىء غير ذلك المر، فراح يلعق منها.

ظل يتابع السراب لمدة يومين، فى كل مرة يحدوه الأمل فى المياه، الله قادر على كل شىء، قادر أن يفجر له المياه يرتوى بها إلى أن يجد حلاً لهذا التيه الذى يبدو أبديًا.

وجد نفسه أمام جب عميق فى جوف الأرض. بدا له المكان مناسبًا ليبات فيه. هبط على المنحدر الوعر بحرص شديد و هو يتعثر فى الصخور. بدا المشهد من أسفل مهولاً، الجبل يحيطه من كل جانب كأن الأرض قد غارت به إلى عمق لا يقل عن ثلاثين مترًا، لا يوجد فوقه سوى السماء الصافية. فى بطن الجبل توجد

شقوق كبيرة مخيفة لا أحد يعرف ماذا تأوى بداخلها. فى أحد الأركان تهبط الأرض فى انحدار شديد، تقدم بقدمين مرتعشتين حتى وجد الماء.. خر ساجدًا شكرًا لله، شرب بنهم حتى ارتوى، اغتسل فى سعادة و هو يقهقه وحده كالمجنون، ثم فتح حقيبته الوحيدة التى لا يوجد بداخلها سوى المصحف. إنه الشىء الوحيد الذى أخذه من أرض الوفاء، و راح يقرأ بصوت مرتعش و هو يتأمل الجبل الرهيب من وقت لآخر فى رعب.

هبط الظلام كثيفًا، الهلع ينهش قلبه، هرب النوم إلى غير رجعة. من يدرى ماذا سيحدث لو نام هنا، قد يموت و تخرج الذئاب لالتهام جثته دون أن يشعر به أحد على سطح هذه الأرض التى بدت له شاسعة بعد أن كان يراها صغيرة جدًا أمام الطائرات النفاثة والصواريخ المنطلقة تشق عنان الفضاء. سلم أمره لله و هو يقول فى نفسه: «و يدرككم الموت و لو كنتم فى بروج مشيدة». ثم إن المسألة ليست مسألة جسد فان، المسألة مسألة روح يرحمها الله أو يشقيها إلى الأبد. دخل أحد الشقوق، مدد جسده محاولاً النوم، بيد أنه كلما حاول الخلود للنوم يهب ضميره معاتبًا فى قسوة، يجلده على كل ذنوبه و آثامه، و تستيقظ كل جروح التمثال الرومانى تهاجمه فى شرسة، لم يجد أمامه بدًا من أن يتخيل «رشا» تجلس بجواره بحسنها الرائع ترنو إليه بعينيها الصافيتين، يبثها لواعج قلبه.. هذا هو الحل الوحيد للنوم.

فى الصباح اكتشف فى المكان بضعة نباتات صحراوية، تأملها بعناية و هو يسبح بحمد الله، طوال عمره يعشق النباتات. أخرج الماء من العين بيديه و راح يرويها، وجد بينهم نبتة صغيره نضرة، ربما ستكون نخلة تمر، ابتسم للنبتة بعد أن قرر تسميتها نخلة «رشا».. على كل حال فإن النباتات تشفع للعبد يوم القيامة.

جلس يتأمل نخلة «رشا»، صورة وجهها لا تفارقه أبدًا. تذكر بعض ما قرأه فى كتب علم النفس، على حسب ما قرأ فإنها شخصية هستيرية. أمعن التفكير فتساءل فى نفسه لماذا يقع معظم الفنانين و قادة الجيوش العظام فى شباك المرأة الهستيرية؟! .. قرأ لأحد علماء النفس المشهورين إنه لا يتصور أبدًا أن يُبدع الإنسان دون الشعور بالشجن. الألم هو الذى يدفع إلى الإبداع، إذا كان لابد من كل هذا الألم ثمنًا للموهبة التى أتفاخر بها على الجميع و لا أملك سواها فى هذه الدنيا فلا أريدها أبدًا، ليتنى كنت صيادًا بسيطًا فى البحر.

رن فى أذنيه صوت الشيخ و هو قول: «لا تعترض». كانا يجلسان فى هذا اليوم تحت ظلال شجرة الزيتون بينما الحمام واليمام يطير فوقهما يسبح بربه. قال الشيخ أن الله يعوض عوضًا كبيرًا الإنسان فى الآخرة عن كل الألام التى يشعر بها فى الدنيا، حتى شكة الدبوس يعوضه عنها خيرًا، حتى أن العبد يوم القيامة يتمنى لو كانت حياته كلها آلام فى آلام من عظمة و روعة الخير الذى سيناله

عوضًا عن الألم.. لكن ترى هل سيعوضنى الله ويغفر لى؟.. قد يغفر لى شرب الخمر، قد يغفر لى إهمالى فى الصلاة فهو ليس فى حاجة إلى صلاتى، لكن هل سيسامحنى فى ذنب «سلمى» وابنها؟ هل سيسامحنى فى ذنب زملائى الذين دمرتهم الواحد تلو الآخر. الشيخ يرى أن الله لم يخلق الإنسان إلا ليعمر هذا الكون، وأنا خربت بيوتًا كثيرة، كانوا جميعًا مثلى لهم طموحات و أحلام، لهم مشاعر نبيلة مثلى، و ربما أنبل منى، ماذا ستقول لله حين يسألك عنهم؟ هل ستقول له لأننى دعوتك فلم تستجب؟ هل ستقول له لأننى فشلت فى الوصول إلى قلب «رشا» رغم أنك تعلم أنها تعيش بلا قلب؟ ما ذنبهم؟ لن يسامحك الله أبدًا. أنت تستحق هذا التيه لتموت وحيدًا فى هذه الصحراء. أنت عبد للتمثال الرومانى الرائع، إنك «آزر»، بنيت التمثال بيدك ثم سجدت له. هربت من الإسكندرية خوفًا على عقلك، خوفًا من أن تُجن مثل «مايكل أنجلو» الذى حطم تمثاله البديع لإنه خال من أى روح..

بعد أن صلى الظهر راح يقطف ثمار التين ثم يلوكها دون أن يشعر بطعمها. اشتم رائحة عطرة، هاجت عواطفه تبعث فيه الشجن كل الشجن، جرت الدماء فى عروقه فاكتشف أنه لم يمارس الجنس منذ أن وصل إلى واحة سيوة بعد أن كان يمارسه يوميًا تقريبًا. رفع رأسه إلى السماء باكيًا خاشعًا و هو يقول: سبحانك يا رب، أنت الذى ابتليتنا بالشهوة، ليس لى دخل فى ذلك.

عندما رفع عينيه إلى السماء رأى على سطح الأرض فتاة بدوية، أشارت له بالصعود إليها، أخذته المفاجأة فظل ساكنًا فى مكانه. هبطت إليه فى خفة و رشاقة كأنها تعرف المكان جيدًا، تتمايل فى دلال، كلما إقتربت انبعثت رائحة الياسمين الذى يعشقه، بدوية غير كل البدويات، تكشف عن وجهها الخمرى، على شفتيها ابتسامة عذبة فتبدو على وجنتيها غمازتان تزيدانها حسنًا و جمالاً، رمقته بعينيها الواسعتان فى ترحاب، ترتدى ثوبًا شفافًا يكشف كل تفاصيل جسدها دون حياء.

هم بالوقوف فعاجلته تضع يديها على كتفه لتمنعه، شعر بطراوة يدها و حرارتها، انتشى، زحفت الطمأنينة إلى قلبه عندما سألته عن اسمه و حكايته، فحكى لها، ثم طلب منها العون للرجوع إلى واحة سيوة، سمعته و هى تتلوى و تتثنى أمامه تستعرض جمالها حتى كاد يذوب رقة و يهيم بها. عندما تأكدت من أنه أصبح يتمنى البقاء معها فى الصحراء ليعب من كأس الحب و النشوة احتضنته، ارتجف كل كيانه فقدمت عرضها:

ــ سآخذك معى إلى قبيلتى، أنا مليكتهم، سأجعلك أنت أيضًا ملكهم، إننا نعيش فى مكان قريب من هنا، ستجد لدينا كل ما تشتهى، أرض وارفة الظلال ، أشجار أعناب و وزيتون، مياه نقية، فراش من ريش النعام، مخازن لا تنفذ من الخمر. ستعيش

معـى فـى قصـرى، سـيكون لـك العبيـد و الجـوارى، قبيلتـى سـتكون هـى شـعبك المختـار بعـد أن يتوجـوك ملـكًا و إلهًـا عليهـم مثلمـا فعـل الفراعنـة مـع الإسـكندر.

راح ينظـر إليهـا فـى دهشـة غيـر مصـدق مـا يسـمع، عندمـا رأت تـردده تمـددت بجـواره و هـى تتنهـد فـى دلال، بينمـا راح «محمـد» يراقـب صدرهـا الناهـد الـذى يعلـو و يهبـط وهـو ينـاديـه فـى إغـراء، ابتسـم قائـلاً:

ـ موافق.

فقالـت بهـدوء و هـى مـا زالـت ممـددة بجـواره بينمـا رفعـت إحـدى سـاقيها لتبـرز فتنتهـا:

ـ لى شرط واحد بسيط.

سـأل و الدمـاء تفور فى وجهه:

ـ ما هو؟

ـ تترك حقيبتك هنا.

قال بهدوء محاولاً التماسك:

ـ هذه الحقيبة ليس بها إلا مصحف.

إعتدلت فى جلستها و هى تقول فى حزم:

ـ قومى لن يسمحوا لك أبدًا بالدخول إليهم و أنت تحمل هذه الحقيبة المتواضعة.

إلتقط «محمد» المصحف بقوة و هو يقول:

ـ لن أترك هذا المصحف مهما حدث.

هبت واقفة و هى تقول فى غضب:

ـ أنت حر. سأتركك هنا حتى تموت وحدك، و ربما أكلتك الذئاب حيًا.

احتضن المصحف و هو يقول فى تحد:

ـ لن أتركه أبدًا.

ذهبت تقفز فوق الأحجار إلى أن وصلت إلى أعلى الجبل ثم استدارت إليه لعله يغير رأيه، لكنها وجدته قابضًا على المصحف بقوة، أزاحت ثوبها كاشفة عن صدرها و فتحت له ذراعيها بينما جلس «محمد» ساكنًا فى مكانه، فتح المصحف و راح يقرأ و هو يبكى و يرتجف.

بعد أن صلى العشاء شعر بالطمأنينة تحيط بقلبه الملهوف لأول مرة فى حياته، دلف إلى الجحر الذى بات فيه الليلة الماضية، تزاحمت الأفكار فى رأسه: وجه «سلمى» وجه «رشا»

صورة الشيخ، أرواح كثيرة تحوم حوله و تدير رأسه. بدون خمور لا يوجد أى أمل فى النوم سوى الحلم المر بالتمثال الرومانى.

بعد أن هامت الروح فى ملكوت ربها رأى نفسه يسير فى مكان ما غريب عنه تمامًا، شوارع مكتظة بالناس، يتزاحمون، يتشاجرون، يصرخون فى ألم، كل يلهث وراء حلمه الضائع الزائف، الشوارع ضيقة، البيوت متلاصقة خانقة، وجد مسجدًا صغيرًا ، دخله، الأضواء خافتة، الهدوء تام، فى آخر المسجد باب مفتوح، تقدم ليرى شرفة مشرقة، الأرض مفروشة بالبلاطات الكبيرة تتخللها بعض الأعشاب الخضراء، العصافير تشدو بحمد الله، تصلى على طريقتها. الشرفة محاطة بسور لا يزيد ارتفاعه عن المتر و نصف المتر، أعطى ظهره للسور ليصلى. قبل الصلاة تساءل ماذا يوجد خلف هذا السور، التفت ليجد مقابر صامتة فى هدوء مريح للأعصاب، هدوء يبعث السكينة، لم يفزع لمشهد القبور، وضع كلتا يديه على السور و راح يتأمل المقابر فى هدوء و سعادة.

●●●

(٨)

استيقظ فى الصباح نشيطًا مرحًا على عكس ما كان يتوقع. إندهش من كل هذا النشاط دون فناجين القهوة، الجسد اللعين الذى كان يشعر به ثقيلاً بطيئًا كأنه مجرد آلة عتيقة متربة عفى عليها الزمن أصبح خفيفًا كأنه يسبح فى الهواء دون خمور. الأمل يزحف إلى صدره بعد أن هجره لسنوات طويلة حتى كان يعتقد أنه لن يعود أبدًا.. التفت ليجد المصحف إلى جواره، لمسه بيد مرتعشة وجلة.. منذ أن رفض عرض الغجرية بالأمس و هو يشعر بقوة خفية تخرج من داخله، قوة جبارة لا يعرف سرها بعد أن كان يرى نفسه ضعيفًا هشًا فى مهب رياح الذكريات الحزينة فيندفع بقوة إلى عالم الرذيلة الحقير.

بعد صلاة الصبح بخشوع تام راح يقرأ فى المصحف، فى أثناء ذلك أتته الأفكار حتى شوشت على قراءته. أغلق المصحف و راح يفكر فى هدوء: بدأت رحلة الضياع من واحة سيوة، أى فى اتجاه الغرب من نهر النيل، لو أنه اتجه شرقًا سيعود حتمًا إلى النيل، من السهل تحديد الشرق من خلال حركة الشمس. لو افترضنا أنه خلال الأسبوعين الماضيين اتجه غربًا حتى وصل إلى حدود ليبيا فإن المسافة لن تكون أقل من ستمائة كيلومترًا

فقط، من يدرى؟ المهم يجب الاتجاه شرقًا إلى ضفاف النيل، سيصل إلى مدينة ما فى الصعيد، و من هناك يتجه مباشرة إلى الإسكندرية الحبيبة التى كان يقول لن أهجرها أبدًا من أجل الشهرة أو المال، لن أهجرها مهما كانت الأسباب، و هناك يشترى قاربًا يجعله مسكنًا له ليعيش بجوار البحر، عشقه الأول والأخير، يستنشق رائحة اليود، يستمتع بهدوئه العاطفى الحالم، وينعم بعاصفته الجبارة. البحر هو الحياة ذاتها، كل الألحان مهما كانت مجرد محاولات لتقليد أصوات البحر، مستوحاة من أمواجه الهادئة حينًا و الهادرة حينًا آخر.

لكن كيف يستطيع الإقدام على هذه المغامرة دون أكل أو ماء. التفت إلى شجرة التين، كل ما عليها من ثمار لن يكفيه أكثر من يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير، ماذا سيفعل بعد ذلك؟ من المؤكد أن الله لن يضله أبدًا بعد الآن، لا يعرف من أين يأتيه هذا اليقين؟ لكن لابد سيقابل فى الطريق نخلة ما يتزود منها، رحمة الله واسعة... أعد نفسه لاقتحام الصحراء و فى قلبه و عقله عزيمة جبارة على قهر الصحراء. لن يجد فى حياته ما هو أسوأ مما هو فيه الآن.

رحل بكل ثقة و أمل، بكل جسارة و شجاعة، فى اتجاه الشرق، سار فى الصحراء لمدة يومين متتاليين، لا شىء غير

الرمـال الصفـراء المترامـيـة الأطـراف، جبـال و صخـور وعـرة. رأى الحربـاء التـى يتحدثـون عنهـا لأول مـرة فـى حياتـه علـى الطبيعـة، راح يرقبهـا وهـى سـاكنة فـوق الرمـال لا تـكاد تراهـا مـن تشـابه اللـون، ثـم راقبهـا وهـى تنتقـل فـوق الصخـور الداكنـة فتبـدل لونهـا علـى حسـب لـون الصخـر تمامًـا، يشـبهون الإنسـان الخبيـث بأنـه يتلـون مثـل الحربـاء مـع أنهـا بريئـة تمامًـا مـن أى خبـث، إنـه دفـاع شـرعى عـن النفس أو تحايل بـرىء مـن أجل الحيـاة. الخبـث صفـة أساسـية مـن صفـات الإنسـان وليس الحيـوان. لماذا يطـرح الإنسـان الصفـات الكريهـة علـى الحيـوان ويحتفـظ لنفسـه بالصفـات الحميـدة فقـط؟ الأسـد متوحـش، النمـر غـدار، الحربـاء خبيثـة بينمـا يـرى الإنسـان نفسـه مـلاكًا طاهـرًا منزهًـا عـن أى نقـص. مـا كل هـذا الغـرور الـذى يتملـك الإنسـان كأنـه يملـك كل القـوة و كل العقـل مـع أن فـى الحقيقـة عقلنـا عاجـزًا تمامًـا عـن إدراك الحقيقـة؟! كل هـذه العلـوم مـا هـى إلا أوهـام، فـى كل يـوم تظهـر نظريـة جديـدة تسـخر مـن النظريـة السـابقة، فمـن أيـن كل هـذه الثقـة فـى عقولنـا و أفكارنـا؟!...

فـى أثنـاء الليـل تهـب الذكريـات الأليمـة، و تهـب معهـا أفـكار الموت الـذى لا يخشـى شـيئًا سـواه لكنـه لـم يجـد أمامـه سـبيلاً سـوى التسـليم بـه، إنـه النهاية المحتومـة لـكل شـىء. قـال فـى نفسـه سـاخرًا مـن خوفـه: مـاذا سـيحدث؟ سـيفنى هـذا الجسـد و يتحلـل و تصعـد الـروح إلـى ربهـا، و هنـاك سيكون الحسـاب عـادلاً، مهمـا كانـت قسـوة

العقاب إلا أنه حسابًا عادلاً، فليتحمل نتيجة أوزاره و ذنوبه بنفس راضية مطمئنة بقضاء الله.

فى اليوم الثالث ابتعد الأمل و هاجمه اليأس بضراوة. لا شىء غير الصحراء كأن النيل قد جف تمامًا. معقول؟ يتمنى رؤية أى إنسان حتى لو كان صديقه الغادر «هانى» حتى لو كانت «سلمى» بعد أن شاخت و تجعد جمالها، تجاعيدها أرحم بكثير من هذه الصحراء القاحلة، حتى لو كانت الغجرية التى تملك الطعام والخمر. أحشاؤه تتلوى جوعًا بعد أن نفد الطعام، أخرج كل أمواله من جيوبه و راح يتأملها، معى الأموال و لا أجد الطعام، ماذا أفعل، هل آكل الأوراق النقدية؟!..

رأى على مرمى البصر جبلاً شاهقًا، تبدو أسفله خطوطًا مستقيمة. قد تكون واحة جديدة، حث الخطوات لعله يستريح هناك لمدة يومين أو ثلاثة ثم يتزود بالغذاء حتى يكمل الرحلة. عندما وصل إليها وجدها شواهد قبور.. لم يرتعد لمشهد القبور الغارقة فى الصمت كالمعتاد، بل ابتسم فى ارتياح و هدوء، خر ساجدًا شكرًا لله. القبور تعنى إنه لابد من وجود أحياء بالقرب من هنا. اندهش عندما اكتشف اقتران الحياة بالموت. ترى هل هناك اقتران أيضًا بين اليأس و الأمل؟

صعد الجبل ليكشف المكان بحثًا عن الواحة القريبة، لم ير من فوق القمة سوى صحراء مترامية الأطراف. تخيل المشهد من سطح القمر مثلاً، ماذا سيكون مشهد الأرض؟ صحراء لا نهائية، ثم غابات و مستنقعات لا نهائية، يحيط كل ذلك بحور لا نهائية، وعلى سطح هذه الأرض اللانهائية لا يوجد أحد غيره.. تذكر قصة نزول «آدم» إلى الأرض، كان يعيش على كل هذه الأرض وحيدًا بالفعل، يشعر الآن بمدى غربته و آلامه، يأله من عذاب أليم لا يُحتمل، أكل هذا العقاب القاسى لأنه أكل من الشجرة المحرمة؟ لو كان يعلم ذلك لما أكل منها أبدًا مهما كانت الغواية جميلة لذيذة. لكن الأمل موجود دائمًا، رحمة الله لن تنتهى أبدًا، بعد كل هذا الشقاء و البؤس عثر على أليفته «حواء» فكانت الحياة و الحب.. ثم كان الصراع و القتل بين الأبناء.

راح ينتقل بين أرجاء الجبل الضخم إلى أن عثر على جحر بجواره شجرة تين، فى مكان ليس بالبعيد عين للمياه، قرر الخلود للراحة يومين، جلس أمام مدخل الجحر و هو يأكل من شجرة التين. لا يعرف لماذا تذكر عندما كان يأكل السمك فى سعادة مع جده فى منطقة بحرى بالإسكندرية.

كان جده رجلاً متعلمًا مثقفاً، يحمل شهادة الابتدائية فى الزمن الذى كانوا يمنحون لقب «أفندى» للحاصلين على هذه

الشهادة. عمل فترة فى مهنة التدريس لكنه لم يستمر نظرًا لنفاذ صبره. كان حاد الطباع حتى أنه يعتبر المجاملات بين الناس نوع من المذلة. الصح صح و الخطأ خطأ و لا نقاش فى ذلك، لا مبرر أبدًا لفعل الخطأ مهما كان تافهًا أو بسيطًا. ترك مهنة التدريس بعد أن اكتشف فى نفسه عشق الخشب فأقام ورشة نجارة.

كان فنانًا بارعًا فى نحت الخشب بصبر عجيب لا ينفد، يمكث أيام و ليال فى زخرفة سنتيمترًا واحدًا، ثم ينام بعد ذلك أيام و ليال زاهدًا فى العمل رغم كثرة زبائنه و إلحاحهم. برع فى فن النجارة حتى قدم أفخر الأثاث لأفخم الفنادق فى حينه، ذاع صيته حتى صنع أثاثًا لقصر رئاسة الجمهورية، و بالرغم من ذلك لم يتفاخر أبدًا أمام أحد، بل كان يتعمد إنكار موهبته فى تواضع شديد. عاش فقيرًا و مات فقيرًا. لا يجيد فن التعامل مع الناس إطلاقًا، لا يتعامل مع أحد برقة و لطف سواى أنا فقط.

كما كان عاشقًا للخشب كان عاشقًا للبحر و المأكولات البحرية، عاش معظم حياته على أكل السمك المشوى، يأخذنى معه إلى القلعة، ندلف من بوابة صغيرة مجاورة لنصل إلى الحاجز الصخرى الذى يحيط بالميناء الشرقى، نجد هناك الصيادين كل منهم فى يده البوصة و فى قلبه صبر «أيوب». يقلب فى القفة المجاورة لكل صياد ليختار سمكة واحدة أو اثنتين من كل صياد، لا يحدث أى منهم إلا

بكلمات قليلة مختصرة، و عند الخروج من البوابة يدفع الثمن لشيخ الصيادين. نعود معًا إلى البيت. بالرغم من أن جدتى طباخة ماهرة، و بالرغم من وجود خالاتى الكثيرات إلا أنه يهوى شى السمك بنفسه. أجلس بجواره أشم الرائحة فيسيل لعابى، يبتسم لى فى هدوء. يضع الأسماك فى طبق ثم يضع فوقها الملح و يغطيها بطبق آخر و يتركهم حتى يعرقون لمدة نصف ساعة. ثم نجلس نأكل سويًا. يختار لى أطيب و أشهى الأسماك، و بعد أن أشبع يضع لى سمكة أخرى ويصر أن آكلها حاف.

عندما يأتى المساء كنت أخشى الخروج إلى الشرفة الكبيرة المظلمة. طوال حياتى أخشى الظلام. كان المنزل من المنازل القليلة المرتفعة فى المنطقة المواجهة لباب الجمرك حتى أننى كنت أرى أدق تفاصيل الميناء من الداخل، كان هناك ونشًا ضخمًا ثابتًا. الونش شامخًا أعلى من المراكب، يبدو فى الظلام كأنه شبح عملاق أو شيطان ماكر.. لو كنت أعلم شيئًا عن الشياطين الكامنة فى الصدور لأمضيت كل حياتى بجوار هذا الونش.. كنت أنام بجوار جدى. أضع رأسى فوق صدره و أسمع نبض قلبه الذى كان الجميع يصفه بالغلظة بينما لم أشعر أنا بهذه الغلظة قط. أستيقظ فى الصباح الباكر لتسألنى جدتى عما أريد فى الإفطار. كثيرًا ما كنت أطلب الفطائر بالسكر، آخذ منها النقود و أنزل أجرى فى الشوارع الهادئة الخالية، كانت الشمس فى هذه

الأيام حانية دافئة. لم تكن أبدًا مثل الشمس الحارقة التى قست على الدنيا بعد أن كبرت..

ما أن تعلمت قيادة السيارات حتى أخذت السيارة بدون علم والدى. اتجهت مباشرة إلى المقهى المفضل الذى يجلس فيه جدى. عندما رآنى أركن السيارة بخبرة المبتدئ ابتسم قائلاً: لقد كبرت يا ولدى، غدًا ستأتى إلى و معك خطيبتك ثم تشترى سيارة خاصة بك. الأيام تجرى سريعًا. لمح فى عينيى بريق السعادة وكأنه علم بالغرور الذى يجيش فى صدر المراهق، فرفع إصبعه فى وجهى وقال محذرًا:

- احذر السيارة يا ولدى. السيارة يركبها شيطان مغرور. تجلس داخلها فى هدوء، تلمس بقدميك البنزين فينطلق الوحش الثائر، و عندما تشعر بسيطرتك على هذا الوحش يمتلكك الغرور الذى تكون نهايته فاجعة.

فى خلال بضعة أيام مرض جدى بالحمى الصفراء. دخل مستشفى الحميات فى قسم الأمراض المعدية. رفض كل الزيارات خوفًا على الناس من العدوى باستثناء خالى الكبير فقط. ذهبت إليه أكثر من مرة لكنه رفض زيارتى بكل شدة. فى المرة الأخيرة أصررت على الدخول إليه بعد أن أزحت خالى جانبًا بكل قوتى. ما أن رآنى جدى حتى صاح فى لكى أخرج قائلاً: أنت مازلت

عودًا أخضر لا يتحمل المرض. تقدمت نحوه و قبلته و هو يحاول بكل جسده المريض العجوز التملص منى، طردنى و هو يقول: سأموت غدًا. أتمنى لك حياة سعيدة إن شاء الله. تركته باكيًا داعيًا له بالشفاء.

مات جدى فى اليوم التالى. حضرت جنازته، تعاونت مع الرجال مذهولاً فى حمله و إنزاله القبر. كان قبرًا مظلمًا مخيفًا. أهالوا عليه التراب. دك الحانوتى التراب بقدميه المتسخين كأنما لا يوجد إنسان هنا. وقفت فى الطابور لأخذ العزاء لأول مرة فى حياتى. بعد انصراف الناس عدت وحدى إلى القبر، قرأت له الفاتحة و أنا أبكى. طلبت له الرحمة من أعماق قلبى. التزمت بالصلاة فى مواقيتها لا لشىء سوى لطلب الرحمة لجدى.

بعد أن ماتت جدتى و تزوجت خالاتى انقطعت أقدامى عن بحرى تمامًا. لم أذهب إلى هناك إلا بعد أن فشلت فى الوصول إلى قلب «رشا». فى هذه الأيام كنت أحن كثيرًا لهذا المنزل الذى كان عامرًا بحب جدى و جدتى و خالاتى. أذهب إلى هناك أتأمل المبنى العتيق، عندما أصل إلى الباب بالسيارة أشعر بقدمى عاجزة عن الضغط على دواسة البنزين، أجلس فى نفس المقهى الذى كان يجلس فيه جدى.. ترى ماذا سيكون حال هذه الشقة الآن؟! أعلم جيدًا أنه لم يسكنها أحد بعد ذلك، لا شك فى

أنهـا سـتكون خربـة عفنـة كأن لـم يكـن هنـاك أنـاس يعيشـون هنـا، برقـت عيناه وهـو يقـول فـى نفسـه: و لماذا لا؟... عندمـا أعـود إلـى الاسـكندرية أشـترى هـذه الشـقة و أمضـى بهـا بقيـة حياتـى...

عندمـا هبـط الظـلام الموحش فـى الصحـراء الشاسـعة دخـل إلـى جحـر لينـام. عـاودت الذكريـات هجومهـا العنيـف. وجـه «سـلمى» لا يفارقـه أبـدًا بابتسـامتها الصافيـة الحانيـة و هـى تمنحـه كل شـىء دون مقابل. وجـه «رشـا» لا يفارقـه أبـدًا، نجـح والدهـا فـى أن يعلمهـا أن الحيـاة أخـذ فقـط دون عطـاء أبـدًا، إعلانهـا أمـام الجميـع بأنـه ليـس الإنسـان الـذى فـى خيالهـا يـرن فـى أذنيـه لا ينقطـع طـوال حياتـه. تـرى هـل تعلـم مـدى تأثيـر هـذه الكلمـة؟ هـل تعلـم مـاذا حـدث لـى بعدهـا؟... هـل تعلـم أيـن أنـا الآن؟...

ابتسـم فـى سـخرية عندمـا تذكـر كلمـة جـاره المقـدم «درويـش». كان يقـول إنـك إذا أرحـت الجنـدى أتعبـك، وإذا أتعبتـه أراحـك.. يبـدو أن النسـاء مثل المجنديـن. أتعبـت «سـلمى» فأصبحـت لا تتمنـى شـيئًا سـوى إرضائـى، أرحـت «رشـا» كل الراحـة فرفضـت سـماع أيـة كلمـة. بالرغـم مـن ذلـك لا طريـق إلـى النـوم سـوى الحلـم المـر بالتمثـال الرومانـى.

●●●

(٩)

بعد صلاة الصبح و تناول الإفطار و سقى النباتات البرية طمعًا فى رضا الله عاد إلى جحره هربًا من لسعات الهواء الباردة. رغم أننا فى وسط النهار إلا أن الشمس قد غابت خلف السحب الكثيفة فراحت الرياح ترتع فى خفة و نشاط فى الفضاء الشاسع.. عندما عاد إلى جحره رأى كلبًا يقبض بأنيابه بكل قوة على أرنب برى يتلوى و يتشنج ملطخًا بالدماء.. أخذته المفاجأة.. طول حياته يهوى الكلاب، بل يعشقهم لإخلاصهم و وفائهم، لكنه لم يربى كلبًا أبدًا نظرًا لضيق وقته. بقدر ما يعشق الكلاب بقدر ما يخشاهم، التعامل مع الوفاء و الإخلاص يجب أن يكون بنفس هذا الأسلوب الراقى النبيل. أى إهمال أو تقصير قد يُعد جرحًا لهذا الوفاء فيتحول الكلب إلى حيوان مسعور عنيف.

رماه الكلب بنظرات حذره، بينما راح «محمد» يرقبه فى قلق، لا يعرف كيف يتعامل معه. يبدو أن الكلب اطمأن لنظراته فراح ينهش فريسته فى هدوء. امتعض لمشهد الدماء لكنه قال فى نفسه: إنه حيوان برىء لا يعرف معنى القتل.. الإنسان هو الذى يقتل مع سبق الإصرار و الترصد، بل فى كثير من الأحيان يدفع بغيره للقتل. يتفنن و يبدع أخبث أساليب القتل و أمكر ألاعيب

الهرب. القانون فى جميع أرجاء العالم يقف عاجزًا أمام الإنسان القوى. ليت الوحشية تنتهى عند حد القتل، ففى هذه الحالة سيُدفن جسد المقتول و تنتهى المشكلة عند هذا الحد. الأبشع قتل القلوب عمدًا، فعندما يعيش الجسد يتلوى و يتألم بقلب مقتول ينزف دمًا يفقد الأمل فى كل شىء، يفقد الإيمان بكل شىء، حتى يفقد إنسانيته فى النهاية فيسلم نفسه عن طيب خاطر لأهواء الشيطان الذى يجدها فرصة سانحة، فيسعى لتدمير كل شىء نبيل طاهر. مع ذلك لا يعاقب القانون أبدًا على قتل القلوب، مع ذلك يدعى الإنسان التحضر و الرقى..

بعد أن انتهى الكلب من طعامه أشار له «محمد» إلى موضوع المياه، لا شك فى العطش الآن. ذهب الكلب إلى العين فوجد المياه فى عمق لا يستطيع الوصول إليه. هب «محمد» و راح يغرف بكلتى يديه ليسقيه، بعد الارتواء نظر إليه الكلب فى امتنان ثم راح يمسح رأسه فى قدميه. استبشر خيرًا و قرر اصطحابه معه لنهاية الرحلة.

فى المساء هبت عاصفة ترابية هوجاء حتى لم يعد الظلام أسود كالمعتاد، بل أصفر فى لون التراب. قبع «محمد» داخل جحره يتأمل التراب الزاحف فى خشونة على الأرض حتى بدى كل شىء فى هذا الكون معذبًا. التفت إلى الخارج فبدا له أن هناك وحشًا عملاقًا يصر على حبسه حتى الموت فى هذه الصحراء..

تذكر ما قرأه عن «أفلاطون» حين وصف الإنسان بأنه يعيش سجينًا بداخل الكهف فى بطن الجبل خوفًا من المارد الذى يراه يتحرك فى الخارج، بينما لو خرج الإنسان من الكهف لمواجهة الحقيقة لأدرك أن هذا المارد ما هو إلا دخان يتحرك. هكذا يعيش الإنسان سجين هذا الجسد اللعين الذى يمنعه من بلوغ الحقيقة. يبدو أنه قد كُتب عليه الموت وحيدًا داخل هذا الكهف.

انتبه من تأملاته على الكلب و هو يعضه برفق فى قدميه، نهره محاولاً إمعان التفكير، بيد أن الكلب راح يشده من ثيابه محاولاً مداعبته، ثم راح يلعق رقبته حتى سمعه يقول له سأظل معك إلى الأبد.. شعر بالحسرة تمزق قلبه، إذا كان الحيوان الذى يحتقره الجميع لأنه لا يملك العقل و الوجدان مثل الإنسان قد شعر به من خلال النظرات الصامتة دون كلام فلماذا لم تشعر بى «رشا»؟ أين الخطأ؟ ليت الناس كلهم مثل هذا الكلب الوضيع..

ابتسم فى سخرية عندما اكتشف أنه يعتبر نفسه الإنسان الوفى الوحيد فى هذه الدنيا رغم كل ما فعله مع «سلمى»، رغم كل ما فعله مع زملائه و تلاميذه النابهين. يعتبر نفسه إنسانًا مؤمنًا رغم أنه كان يعب زجاجات الخمر و يسهر ليالى الأنس أثناء شهر رمضان. يا لك من إنسان فاجر وقح. إنك مثلهم، إنهم رغم كثرة ذنوبهم و خطاياهم يعتبرون أنفسهم أبرارًا مثلك.

فـى الصبـاح وجـد نفسـه مردومًـا فـى التـراب، فـى أنفـه، فـى عينـه، يشـعر بـه خشـنًا يجـرح ثنايـا جسـده.. خـرج مـن الكهـف وجـلاً فلـم يسـتطع رؤيـة شـيئًا، التـراب يرتـع سـعيدًا يحجـب الكـون، الريـاح ثائـرة.. راح يتخبـط بخطـوات مرتجفـة مثلمـا الضريـر حتـى وصـل إلـى النباتـات، جمـع بعـض الثمـار التـى أحس بخشـونتها بـين أصابعـه مـن أثـر هـذا التـراب اللعـين الـذى يغلـف العالـم. حـاول غسـل الثمـار جيـدًا فـى المـاء ثـم رجـع سـريعًا إلـى الكهـف. التهمهـا بيـد ترتجـف مـن البـرد. التـراب داخـل الثمـار يحطـم أسـنانه المترفـة و يلـوى أمعـاءه، تذكـر صديقـه «حسـن»..

كان «حسـن» زميـلاً فـى فتـرة التجنيـد، نوبـى، أسـمر البشـرة أبيـض القلـب بشوشًـا طاهـرًا، يحـب كل النـاس، الكـره لا يجـد طريقًـا إلـى قلبـه مهمـا كانـت قسـوة مـن حولـه.. مـن أحـب هواياتـه إعـداد الطعـام وترتيبـه ثـم تقديمـه بطريقـة تفتـح شـهية الشـبعان. فـى ذات يـوم كانـت وجبـة الغـداء عبـارة عـن شـراب العـدس الأصفـر، تذمـر الزمـلاء مـن هـذه الوجبـة الشـعبية التـى ملـوا منهـا بينمـا كنـت أنـا أداعبهـم لأننـى أحـب شـربة العـدس الأصفـر. تذوقتـه فوجدتـه خفيفًـا مثـل المـاء، تركتـه. سـألنى «حسـن» عـن السـبب فقلـت لـه أحبـه ثقيـلاً مثلمـا كانـت تفعلـه والدتـى، فـإذا بـه يعـب مـن الدلـو الكبيـر و يغلـى الشـربة علـى النـار حتـى يبخـر المـاء. قلـت أريـد ملعقـة مـن السـمن البلـدى، فأتـى بهـا مـن عنـده. تذوقتـه فطلبـت بعـض التوابـل، فأتـى

بهـا، ثـم طلبـت خبـزًا محمصًـا لأضعـه فـى الشـراب، فقـام بتحميـص الخبـز. عندمـا بـدأت الأكل بشـهية فوجئـت بـه لا يـأكل معـى، قـال: أنـا لا أحـب العـدس. شـكرته علـى إعـداد هـذه الوجبـة مـن أجلـى فقـط. فابتسـم ابتسـامته الصافيـة حتـى بـدت أسـنانه ناصعـة البيـاض وسـط وجهـه الأسـمر و هـو يقـول: بالهنـاء و الشـفاء.

بعـد انتهـاء فتـرة التجنيـد عـدت إلـى الإسـكندرية و عـاد «حسـن» إلـى بلـده أسـوان. كان يتصـل بـى كثيـرًا و يلـح علـىّ أن أزوره هنـاك، كنـت أتمنـى فعـلاً رؤيتـه. لكـن حـين اصطدمـت بالتمثـال الرومانـى كرهـت كل شـىء فـى الدنيـا. فقـدت صبـرى علـى كل شـىء و أى شـىء. أصبحـت أضيـق بثرثرتـه و ضحكاتـه التـى لا معنـى لهـا. ثـم انتقلـت إلـى القاهـرة و أصبحـت موسـيقارًا معروفًـا، حـاول الاتصـال بـى لكنـى لـم أكـن أرد علـى تليفوناتـه بعـد أن أصبـح لا يشـغلنى شـىء سـوى النجـاح فقـط و لا شـىء غيـر ذلـك.. قابلتـه مصادفـة فـى أسـوان لكنـى أدرت وجهـى، كنـت أريدهـا رحلـة اسـتجمام و هـدوء بجـوار «سـلمى» لأداوى بهـا كل جروحـى.

لـم أشـعر بقيمـة صداقتـه و أقدرهـا مثلمـا أقدرهـا الآن.. اكتشـف فجـأة أنـه كانـت هنـاك أشـياء جميلـة لـم يقدرهـا حـق قدرهـا. لـم تكـن الحيـاة سـوداء مثلمـا كان يراهـا، صـدق اللّه العظيـم حـين قـال: « لـو لـم نجـد فيهـا خيـرًا لفسـدتا». اكتشـف مـدى جحـوده

و نكرانه للنعم. لم يشعر يومًا بالفقر و الحاجة التى يعانى منها الكثيرون، و لم يشكر الله. لم يشعر بالجوع و العطش إلا بعد أن تاه فى الصحراء، بالرغم من ذلك لم يشكر الله. لقد وهبنى الله أسرة متماسكة تحبنى، وهبنى المال، وهبنى موهبة الموسيقى وبرعت فيها. لم أرضَ أبدًا عن كل هذه النعم بل لم أكن أراها أو أشعر بقيمتها من قبل. و بعد كل ذلك أدعى أننى قريب من الله وأتساءل لماذا يتخلى عنى ويضلنى؟! إنسان وقح..

قبع داخل كهفه انتظارًا لهدوء العاصفة، لم يجد شيئًا يفعله سوى تلاوة القرآن. فى أثناء ذلك انتفض الكلب و راح يحيط به من جهة اليسار و هو يدفعه بعنف ثم راح يعوى و يتلوى.. هب «محمد» مذعورًا من هذا السلوك الغريب. ارتمى الكلب على الأرض يتلوى فى تشنجات عنيفة، فإذا به يرى عقربًا أسودًا عالقًا فى فخذ الكلب..

بكى «محمد» من أعماق قلبه مثلما بكى لفقد جده. فى الليل بات وحيدًا دون وجود أحد يتنفس بالقرب منه. بعد أن هامت الروح فى ملكوت ربها رأى نفسه فى حديقة رحبة أشجارها وارفة، نباتاتها مزهرة بكل الألوان بينما الكلب يحيط به يقفز حوله فى مرح و سعادة...

●●●

(١٠)

عاد إلى الصحراء وحيدًا يتجه نحو الشرق أملاً فى الوصول إلى ضفاف النيل لينهل منه حتى يرتوى، بيد أن الصحراء بدت له كأنها لن تنتهى أبدًا. تسرب اليأس إلى قلبه الملهوف و سيطر على كل كيانه.. كان فى الماضى يردد الحكمة الشهيرة: كلما اشتد الظلام كلما اقترب الفجر. لكن الحياة علمته أنه كلما اشتد الظلام كلما اشتدت وحشة الغربة، لن يبزغ الفجر أبدًا، إنه ظلام أبدى.. يشعر كأنه يعيش ضريرًا فى هذه الصحراء يتخبط فى الصخور و الجبال، يتعثر فى الرمال. كان يفخر بعقله الذى لا يُقهر، الإنسان الذكى يعرف طريقه جيدًا، يعرف قدراته ويُحسن الاستفادة منها حتى لا يقع فريسة التيه.. يشعر بقلبه ميتًا رغم ما كان يتفاخر به من إحساسات و مشاعر نبيلة يحولها إلى ألحان عذبة و نغمات صافية بينما يتهم الناس بالغدر و الوحشية.

فى ساعة العصر سقط مرهقًا يائسًا باكيًا، الجوع يمزق أحشاءه، العطش يمزق حلقه. تمدد على الأرض فى استسلام رغم لسعات حرارتها و خشونتها. لم يعد يبحث عن كهف فى بطن الجبل أو جحر فى جوف الأرض.. لا فائدة من أى شىء، لا جدوى من البحث عن الأمل، لا جدوى إطلاقًا من إعمال العقل. الحامى

هـو اللّه. المكتـوب مكتـوب. أذكـى العقـول البشـرية تعجـز عـن بلـوغ الحكمـة، فلمـاذا إرهـاق العقـل فيمـا لا يفيـد أو ينفـع؟ فلينعـم العقـل بهدوئـه. و لينعـم القلـب بالسـكينة و ليكـن مـا أراده اللّه.

بعـد أن غابـت الشـمس تجـر وراءهـا أشـعتها الحمـراء خلـف الأفـق الـذى يسـتحيل الوصـول إليـه، لـم يكـن هنـاك ظـلام دامـس كالمعتـاد، كان القمـر بـدرًا سـاطعًا وسـط نجـوم تتـلألأ. كان القمـر فـى الماضـى رمـزًا للعاطفـة النبيلـة لكنـه بـدا لـه اليـوم أخطـر مـن ذلـك بكثيـر، نـور يسـطع فـى الظـلام، أمـان للتائهـين. إن اللّه لـم يخلـق هـذا القمـر إلا لهدايتـى.

مـن خـلال اسـتدارة القمـر رأى وجـه الشـيخ الوفـى مبتسـمًا. فـى هـذا اليـوم كان يجلـس علـى الأرض مسـندًا ظهـره إلـى الحائـط يتصنـع الدهشـة فـى عينيـه كمـن يتحـدث إلـى طفـل محـاولاً إبهـاره و إثـارة فضولـه. قـال لـه إن اللّه عندمـا خلـق النـار أمـر «جبريـل» عليـه السـلام بالذهـاب إليهـا ليـرى مـا أعـده للكافريـن الجاحديـن. بعـد أن رأى مـدى هولهـا و بشـاعتها عـاد إلـى ربـه خائفًـا وجـلاً وهـو يقـول: سـبحانك ربـى، لـو رآهـا بنـو أدم لـن يكفـر أو يجحـد بـك أحـد أبـدًا اتقـاءً لهـا.. فأحاطهـا اللّه بـكل الشـهوات و الملـذات وأمـر «جبريـل» بالعـودة إليهـا، فلمـا رآهـا هكـذا قـال: سـبحانك، إنهـم جميعًـا سـيهلكون فيهـا أبـدًا. و عندمـا خلـق اللّه الجنـة طلـب مـن

«جبريل» الذهاب إليها ليرى ما أعده للمؤمنين، فعاد و هو يقول: سبحانك ربى، لو رآها بنو أدم لن يعصاك أحد منهم أبدًا طمعًا فيها.. فأحاطها الله بكل المحرمات و المكاره و طلب من «جبريل» العودة إليها. فلما رآها قال: سبحانك لن يدخلها أحد أبدًا إلا من تشمله برحمتك.

بات طوال الليل يحلم بالشيخ الوفى و زوجته «زينب» التى لم يرها.. ثم استيقظ على أذان الفجر ليجد الضباب كثيفًا يحيط به من كل جهة. صوت الأذان يأتيه خاشعًا شجيًا كأن «بلال» نفسه هو الذى يؤذن محاولاً تطهير العالم، صوته يخرق كل كيانه، يزلزل قلبه الميت ليبعث فيه حياة جديدة طاهرة. هب من نومه فى خفة ونشاط.. أصابته الدهشة من أين يأتى هذا الأذان فى هذه الصحراء الموحشة القاحلة.. هل وصل إلى ضفاف النيل دون أن يشعر؟!

راح يحث الخطو فى الضباب الكثيف، الأرض تحت قدميه لم تعد رملية أو صخرية كما تعود، كأنها قطن أو مخمل ناعم.. رأى «رشا» بنظراتها الجوفاء الميتة كالتمثال الرومانى الرائع، لم يلتفت إليها.. رأى «سلمى» بابسامتها الصافية فلم يلتفت.. رأى صديقه «حسن» بنظراته المرحة فلم يأبه به.. رأى الشيخ الوفى مبتسمًا له فى هدوء و سكينة، اطمأن لرؤيته دون الالتفات إليه.. رأى الغجرية العارية تفتح له صدرها الناهد فى إغراء و هى تمد

لـه يدهـا بالـكأس فـى دلال، أغمـض عينيـه و راح يحـث الخطـو فـى اتجـاه صـوت الأذان.

رأى مسـجدًا غارقًـا فـى الضبـاب. المسـجد يشـع نـورًا و بهـاءً، فـر هاربًـا مـن ظـلام الصحـراء الموحش إلـى النـور الأليـف.. النـور يسـطع فـى المسـجد دون لمبـات.. فـى المحـراب يقـف جـده مبتسـمًا مرتديًـا نفـس الجلبـاب الأبيـض الـذى عـاد بـه مـن رحلـة الحـج. عندمـا رآه جـده أعلـن بدايـة الصـلاة ثـم راح يصلـى بـه الفجـر، يتلـو القـرآن بصـوت رخيـم شـجى، يركـع فـى خضـوع و استسـلام تـام لإرادة الواحـد القـادر. أثنـاء السـجود بكـى «محمـد» مـن أعمـاق قلبـه. لا يريـد الوقـوف مـرة أخـرى. بعـد انتهـاء الصـلاة استدار لـه جـده، نظـر «محمـد» إليـه متوسـلاً إعـادة الصـلاة مـرة أخـرى، يريدهـا صـلاة طويلـة لا نهايـة لهـا، عبـادة أبديـة إلـى يـوم القيامـة، فأعـاد بـه الصـلاة و إن كانـت لـم تسـتمر طويـلاً مثلمـا كان يتمنـى أو يشـتهى، لـم يشـعر بعـد بالارتـواء مـن الصـلاة بعـد طـول الجفـاف.

بعـد الصـلاة خـرج مـن بـاب خلفـى فـى المسـجد ليجـد أشـجارًا وارفـة الظـلال حتـى أن ضـوء الشـمس لا يـكاد يصـل إلـى الأرض إلا هادئًـا لطيفًـا، الأرض تكسـوها الخضـرة، نباتـات مزهـرة بـكل الألـوان، رائحـة الياسـمين تنبعـث فـى كل المـكان فتفعـل فـى قلبـه مفعـول السـحر.. تحـت الأشـجار الوارفـة بيـت رمـادى اللـون، تتسـلق

حوائطه النباتات الخضراء. دخل بخطوات واثقة، لا يعرف من أين أتته هذه الثقة؟ الضوء يشع مبهجًا فى المكان.. فى وسط الردهة تجلس «رشا» بكامل جمالها و زينتها، شعرها الطويل يسترسل فى عذوبة حول وجهها كأنه تاج المُلك الذى يتوجها على عرش القلوب الحائرة الملهوفة، شفتاها مكتنزتان فى لون حبات الفراولة، وجنتاها فى لون التفاح، ترتدى نفس القميص الذى فى لون النبيذ فيكشف عن جزء من صدرها، سمع نبض قلبها دون أن يلمسها، شعرت بنظراته الحائرة الهائمة دون أن ينطق بكلمة كأنما هى الأخرى قد سمعت نبض قلبه، ابتسمت بعينيها الواسعتين، نظرات مفعمة بالمشاعر النبيلة مختلفة كل الاختلاف عن التمثال الرومانى... إنها «رشا» الحقيقة التى عشقها من صميم قلبه حتى تغلغلت فى كل وجدانه وكيانه..

●●●

العقيد «مؤمن»

أمرنى العقيد «مؤمن» بالانتظار بجانب السيارة بصفة مستمرة، كما أمرنى بأن أكون أنا و السيارة على أهبة الاستعداد للتحرك فى أية لحظة... بالأمس تحركت مقدمة اللواء المدرع محملة فوق عربات القطار إلى الحدود و نحن الآن فى انتظار تحرك قلب اللواء.

على مقربة منى طفلة بدوية لا يتعدى عمرها الخمسة أعوام، ممزقة الملابس، حافية القدمين، يغطى وجهها تراب الصحراء الأصفر الخشن، تتأمل بنظرات بريئة الدبابات و المدافع غير مدركة مدى بشاعتها. من يدرى؟ ربما تكون فى قرارة نفسها تحسدنا على أننا نلهو بمثل هذه الألعاب الضخمة المثيرة... تذكرت ابنة أخى، إنها فى مثل سنها إلا أنها تحمل هم الدراسة من الآن، كثيرًا ما يضربها أخى أو يحرمها من الألوان و الرسم عندما تُقصر فى واجباتها المدرسية.

شعرت الطفلة بنظراتى لها فالتفتت إلىّ مبتسمة. كدت أطير إليها و أضمها إلى صدرى بيد أن قدماى تسمرتا فى الأرض حرصًا على تنفيذ أوامر العقيد «مؤمن». بالنسبة لجندى مجند مثلى يكون التردد أو حتى مجرد التفكير قبل التنفيذ يُعتبر تكسيرًا للأوامر

العسكرية، هذا يستوجب محاكمة عسكرية قاسية قد تنتهى بالحكم بخيانة الوطن أو الجُبن على الأقل. و أنا على استعداد لفعل أى شىء مهما كلفنى ذلك من ثمن حتى لا أبدو أمام نفسى إنسانًا جبانًا، لم و لن أسمح لأحد أن يعاير ابنة أخى بعمها الخائن.

سمعت صوت العقيد «مؤمن» يأتى من بعيد و هو ينبه الجنود قائلاً الشعار المعروف «سلاحى حياتى، لا أتركه قط حتى أذوق الموت». تخيلته و هو يقف بينهم ضخم الجثة يشمر أكمام سترته، نظراته صارمة ثاقبة إلى أعماق من يقف أمامه، الجميع يهابه ويُقدره، لكنهم لو رأواه فى الليلة السابقة لأشفقوا عليه.

بالأمس استيقظت قلقًا بعد منتصف الليل بربع ساعة على صوت همهمات غريبة، أزحت باب الخيمة بحذر فرأيته يجلس على عتبة عربة النوم الخاصة به يمسك بصورة فى يده يتأملها بحنان دافق و يتنهد فى أسى، ثم ينظر إلى السماء بعينين قلقتين و يتمتم ببعض الدعوات طالبًا الستر من الله... أشفقت عليه، لم أكن أتصور أبدًا أن يكون بمثل هذه الرقة و العاطفية... لا شك أنها صورة أمه. عندما يكون الإنسان على موعد مع الموت لا بد أن يتذكر من وهبته الحياة. خرجت إليه لأطمئن عليه، سألته عن الصورة فقال لى مشفقًا: لا تشغل بالك يا بنى، إذهب الآن للنوم، أمامنا مجهود كبير فى الأيام القادمة.

عندما قال لى «يا بنى» شعرت فعلاً أنه أبى الرحيم الودود وليس العقيد «مؤمن» الجبار... وصل القطار، تحركت بالسيارة فوق إحدى العربات كما صدرت الأوامر و من هنا رأيت البدوية الصغيرة و هى تبكى و ترتجف هلعًا من زمجرة الدبابات و هى تتحرك فوق الصخور فتحيلها ترابًا هشًا يتطاير فى الهواء يكاد يحجب ضوء الشمس، عندما رأيت دموعها أقسمت ألا أعود إلا منتصرًا أو جثة هامدة، إذا كان هذا حالها و الدبابات تتحرك إلى القطار فى هدوء، فكيف يكون حالها عندما تزحف إلى قريتها دبابات مماثلة يقودها أعداء يقذفون النيران فى كل مكان... لا بد من النصر من أجل البدوية و من أجل ابنة أخى.

بعد أن صعدت الدبابات و أبطلت محركاتها أتى العقيد «مؤمن» ليجلس بجوارى فى السيارة، لم أشعر به لانشغالى بالطفلة فصرخ فى قائلاً «انتباه». انتفضت واقفًا مؤديًا التحية العسكرية فى ثبات، رأيت فى عينيه نفس النظرات الحازمة الثاقبة كأنه يشعر بكل ما يدور فى صدرى. عندما بدأ القطار فى التحرك التفت إلى البدوية الصغيرة، أشرت إليها مودعًا فردت علىّ الإشارة و هى تبتسم..

كانت الرحلة متناقضة كل التناقض، مر بنا القطار على قرى جبلية فقيرة مهملة لا تجد بها سوى الفقر و الجهل، أناس

لا يعرفون شيء في هذه الدنيا و لا يدركون معنى الحرب. بعد هذه القرى ببضعة كيلومترات تجد القرى السياحية الفاخرة تنتشر حولها و بداخلها أفخر أنواع السيارات بأبهى الألوان، قصور فاخرة تتزين جدرانها الخارجية بنقوش في غاية الروعة. معظمهم يضع العلم في الشرفة، ربما بدافع الخوف و القلق... لا شك أن هؤلاء الناس يتحدثون عن الحرب بعد الخروج من حمامات السباحة وهم يأكلون الجمبرى و السبيط أمام شاشات التليفزيون، قد تكون الحرب بالنسبة لهم شيء مثير لكنه يختلف تمامًا عما نشعر به نحن الجنود...

في الساعة الحادية عشرة رأيت كل الضباط و القادة يمسكون بأيديهم أجهزة الراديو الصغيرة، يعبثون بالزر بحثًا عن محطة معينة ثم يتنصتون على السماعة في حذر و ترقب، زعيمنا سيلقى خطابًا الآن، بحثت مثلهم في المذياع الصغير محاولاً معرفة الأمور التي يصفونها بأنها خطيرة، كان الصوت متقطعًا مشوشًا، الراديو بسيط و عجلات القطار تئن بما تحمله من معدات ثقيلة. لكني التقطت بضعة كلمات، كلمات ضخمة رنانة كالمعتاد «سنفعل كل ما يمليه علينا ضميرنا الإنساني، لا بد أن نساير ركب الحضارة الحديثة، لا نريد سوى السلام و العدل و الرفاهية لكل شعوب العالم».

بعد الخطاب بدأنا فى تناول الغذاء، انقسمنا إلى مجموعات صغيرة تلتف حول نفسها فى صمت. لم أجد فى نفسى أية رغبة فى تناول الطعام، عندما يقدم الإنسان على الموت يزهد كل شىء، يفقد كل إحساس بالحياة، لكننى بالرغم من ذلك أقبلت على الأكل بكل شراهة، إذدرته دون أن أتذوقه، يجب أن أكون فى تمام الصحة و العافية حتى أستطيع الصمود، ليس من أجلى أنا، لكن من أجل ابنة أخى و البدوية الصغيرة...

بعد الغذاء رأيت العقيد «مؤمن» يجلس على عتبة عربة النوم وحيدًا، يتأمل الصورة و فى عينيه نظرات متسائلة مفعمة بالأسى والحيرة، من نظراته تأكدت أنها صورة ابنته، الجميع يعلم مدى هيامه بها. فى قمة ثورته و غضبه و بطشه يهدأ تمامًا و يتحول إلى طفل وديع إذا أقسم عليه أحد بحياتها.. فى إحدى الأمسيات السابقة علمت منه أن ابنته فى السادسة عشرة، تنظم الشعر ويحلم بها شاعرة كبيرة مرموقة. فى هذه الليلة حدثته عن ابنة أخى التى فى الخامسة من العمر، تعشق الألوان و الرسم، أنوى إلحاقها بمرسم خاص بالأطفال عندما تبلغ السابعة، أنا أيضًا أعشق الرسم لكنى فشلت فى تحقيق أحلامى و طموحاتى من خلاله، لذلك سآخذ بيدها خطوة بخطوة، عندما تصبح فى السادسة عشرة سأعاونها على إقامة أول معرض خاص بها.. لكننى أدركت اليوم من خلال نظرات العقيد «مؤمن» أننا لن نعيش حتى تتحقق الأحلام. فقلت فى

نفسى فى إصرار: المهم تحقيق الأحلام و إن كنت ميتًا، لا شك فى أنها ستفخر بعمها الشهيد.

وصل القطار إلى نهاية الطريق، هبطت المعدات مزمجرة تقتحم الصحراء المترامية الأطراف، مررنا بجانب مشروع ترعة لم يكتمل بسبب الظروف الراهنة، ثم دلفنا بين الجبال و الوديان إلى أن لحقنا بمقدمة اللواء تعسكر حول تبة نتستر وراءها من مواقع العدو.

ما إن هدأت المحركات حتى أمرنى العقيد «مؤمن» بالتحرك معه أعلى التبة، اندفعت السيارة فوق الرمال الناعمة فى قوة وعنف كأنها وحش ثائر يشق الخراب، عند نقطة محددة أمرنى بالتوقف، هبط من جانبى، تستر خلف صخرة و راح يتفحص مواقع العدو من خلال نظارة الميدان المكبرة، استطلع يمينًا وشمالاً بدقة متناهية، فجأة خرجت منه شهقة و سقطت النظارة... جريت نحوه لأطمئن عليه، لأول مرة فى حياتى رأيت فى عينيه دموع متحجرة ثائرة. ربت على كتفى برفق قائلاً:

- لا تقلق يا بنى.

شعرت أنى ابنه الوحيد فعلاً، أردت أن أضمه لأهون عليه، لكنى شعرت بأننى لو ضممته فى هذه الحالة سوف ينخرط فى بكاء عنيف و أنا لا أريد أن أرى دموع العقيد «مؤمن» العظيم الجبار فى مثل هذه الظروف.

فـى أثنـاء طابـور المسـاء رأيتـه جبـارًا عظيمًـا كعادتـه، أصـدر أوامـره فـى حمـاس بالاسـتعداد التـام و توخـى الدقـة فـى التنفيـذ... بعـد الطابـور تلقـى إشـارة مشـفرة فـى عربـة القيـادة، خـرج بعدهـا و هـو يغلـق البـاب فـى عصبيـة، رأيتـه يختلـى بنفسـه خلـف العربـة يتفحـص الصـورة فـى فـزع محدثًـا إياهـا، أو ربمـا يحـدث نفسـه...

سـألته عـن سـر الصـورة، فعلمـت منـه أنهـا صـورة ابـن أختـه التـى تزوجـت مـن رجـل مـن البـلاد القابعـة خلـف هـذه الحـدود و هـى مقيمـة هنـاك مـع زوجهـا. المفـروض أن يكـون ابـن أختـه الآن فـى الثالثـة والعشـرين، أى فـى سـن التجنيـد، عندمـا تفحصـت الجبهـة رأيـت جنديًـا يشـبهه إلـى حـد كبيـر. تنهـد فـى أسـى و هـو يقـول: حقيقـة لسـت متأكـدًا إن كان هـو فعـلاً، لكـن لـدى شـعور أكيـد أنـه هـذا الطفـل الـذى طالمـا احتضنتـه و لعبـت معـه.. فـى آخـر لقـاء بيننـا، منـذ سـبع سـنوات، أدى لـى التحيـة العسـكرية مازحًـا مبتسـمًا، ابتسـامته لا تفارقنـى منـذ علمـت بالمهمـة، كمـا أن كلمـات القائـد الأعلـى تـرن فـى أذنـى، قـال لـى أننـى قائـد المهـام الصعبـة، الشـعب بأكملـه رجالـه و نسـائه و أطفالـه ينتظـرون منـى إمـا النصـر و الفرحـة أو الـذل و المهانـة.. الانسـحاب جُبن و خضـوع، إن اعترضـت سـيعاير النـاس ابنتـى بأبيهـا الخائـن... تنهـد العقيـد «مؤمـن» و هـو يسـألنى.. مـاذا تفعـل لـو كنـت مكانـى؟ لـم أجـد شـيئًا أقولـه، فصـرخ فـىّ قائـلاً فـى حنـق: انصـراف لا ترينـى وجهـك إلا عندمـا أطلبـك.

انصرفت من أمامه بسرعة، تعثرت فى الرمال الناعمة و قد شعرت بنفس ما شعرت به عندما وجدت نفسى فى بحر متلاطم الأمواج و أنا لا أجيد السباحة، لولا ستر الله لأصبحت فى عداد الأموات منذ سنوات.

بعد ظهر اليوم التالى طلبنى، أمرنى بالجلوس خلف مقود عربة القيادة المصفحة و جلس هو بجانبى، رأيت حول عينيه هالات سوداء مرهقة بيد أن نظراته عادت إليها القوة و العظمة... لاحظت من خلال حركاته السريعة المتعاقبة مدى المجهود الجبار الذى يبذله محاولاً اسكات عقله و الهرب من أفكاره... أمرنى بالصعود إلى التبة و التستر خلف الصخرة. توقعت الهجوم من أعلى التبة. أمر الكتيبة الأولى بالالتفاف حول التبة من جهة اليمين، و أمر الكتيبة الثالثة بالالتفاف من جهة اليسار و أبقى الكتيبة الثانية فى مكانها تواجه العدو إذا ما صعد فوق التبة و تحمى خلفها كتائب المشاه والمدفعية الثقيلة. أصدر أوامره بالاشتباك فانبعثت النيران فى كل مكان. لم يأت المساء إلا و قد دمر موقع العدو.. استمع إلى كل الإشارات القادمة إليه فى حرص شديد و هو يراقب الميدان بنظرات القائد المغوار و بعد أن تأكد إنه لم يبق سلاح يُذكر مع العدو أمر عربات الكشف عن الألغام بالتقدم، رأى بعينيه ابن أخته و هو يقف ممزق الثياب يمسك بندقية خاوية، حاول الجندى المهزوم التصدى، فى حركة دفاع

جنونيـة وقـف أمـام إحـدى العربـات فاتحًـا ذراعيـه كأنـه يحتضـن خالـه فـإذا بالسـيارة و الجنـدى ينفجـران نتيجـة المفرقعـات التـى لفهـا الجنـدى المهـزوم حـول خصـره.

رُفـع علـم بلادنـا فـوق الأرض، اسـتقر لواؤنـا المنتصـر فبكـى الجميـع فرحًـا. فـى المسـاء رقـص بعـض الجنـود و هـم يحملـون السـلاح فـى نشـوة عارمـة بينمـا اختلـى العقيـد «مؤمـن» بنفسـه فـى عربـة القيـادة، ذهبـت إليـه لأطمئـن عليـه، خـرج إلـى بنظـرات زائغـة و هـو يقـول:

- مبروك النصر.

قلت مهونًا:

- أنت لم تفعل سوى ما يمليه عليك ضميرك.

رمانى بنظرته الخارقة ثم قال:

ـ اذهب للاحتفال مع أصدقائك.

ثم دخل خيمته، و تساءلت فى نفسى عن معنى كلمة (ضمير).

●●●

اللهاث

وقفت -أمام إشارة ممنوع الانتظار- سيارة فارهة فاخرة. هبط منها شاب وسيم يتباهى بثيابه و شعره المصفف بعناية أكثر مما يتباهى بفتوته و رجولته. و من الباب المقابل هبطت فتاة رقيقة نصف عارية ، تتبختر فتسحر الألباب و تفتن النفوس.

أدار الشاب ذراعه حول خصر الفتاة و وقفا أمام الفترينة. ومن خلفهما سلم حبلى ضخم فى الهواء أسفله طفل صغير لا يتعدى عمره الإثنى عشر عامًا، محنى الظهر، رث الثياب، حافى القدمين.

التفت الصبى يتأمل السيارة برهبة ثم سرح ببصره إلى الفتاة يرقبها بانبهار فاصطدم بشاب ضخم ذى شارب كثيف.

صرخ الشاب الضخم فى الصغير، لعنه هو و أباءه، ثم صفعه، فوقع السلم الحبلى و سال الدم من ذراع الطفل فتشربته ملابسه الممزقة. و انصرف الشاب الضخم يلهث... وراء حلمه...

عاد الشاب الأنيق و معه فتاته إلى السيارة. أدار المسجل على موسيقى صاخبة، زاد من ارتفاع الصوت و كأنه يريد اسماع الآخرين و ليس الاستماع . ثم ضغط على دواسة البنزين فاحتكت العجلات بالأرض محدثة صفيرًا مرعبًا، و انطلقت السيارة تشق

الزحـام بقـوة و عنـف. احتضنـت أم طفلهـا خوفًـا عليـه مـن العربـة المجنونـة فقهقهـت الفتـاة العاريـة فـى نشـوة و سـخرية.

●●●

الطائر الأبيض

أضـواء المدينـة الصفـراء باكيـة.. الشـوارع خاليـة موحشـة. السـحب تتصـارع حـول صفحـة القمـر.. نسـمات الخريـف تعبـث بـأوراق الشـجرالصفراء الجافـة... الشـعور بالوحـدة يتغلغـل فـى عروقـه، يزلـزل كيانـه رغـم أنـه يعيـش مـع زوجتـه المخلصـة و أبنائـه الأبـرار.

تـرك «شـوقى» منزلـه علـى غيـر عادتـه فـى مثـل هـذا الوقـت المتأخـر بعـد أن اسـتعصى عليـه النـوم. اسـتبد بـه القلـق بعـد أن حلـم بصديـق عمـره «جـورج»، رآه فاتحًـا لـه ذراعيـه مبتسـمًا فـى صفـاء، فـى عينيـه مـودة و ترحـاب، مـا زال شـابًا فتيًـا رغـم مـرور إثنـين وثلاثين عامًـا، سـرعان مـا غاضـت ابتسـامته و تحولـت نظراتـه إلـى عتـاب ثـم اسـتجداء كمـن يطلـب النجـدة... شـعر بحـرارة جسـده... استنشـق منـه رائحـة الإخـلاص و الوفـاء فأصبـح لا يعلـم إن كان حلمًـا أم علمًـا. قالـت لـه زوجتـه إنـه تأنيـب الضميـر... الحـق معهـا.

منـذ أن هاجـر «جـورج» إلـى أسـتراليا بـدأت الرسـائل تتوالـى ولكنهـا مـن طـرف «جـورج» فقـط، يصـف لـه أحوالـه و حياتـه فـى المهجـر و يصـف لـه أدق التفاصيـل ليشـعر بأنهمـا مـازالا يعيشـان سـويًا صديقـين إلـى الأبـد، و فـى كل رسـالة يطلـب الـرد للإطمئنـان

علـى أحـوال صديقـه. لكنـه الإهمـال مـن ناحيـة و الانغمـاس فـى التجـارة مـن ناحيـة أخـرى همـا مـا منعـا «شـوقى» مـن الكتابـة. توالـت الرسـائل تعاتـب فـى رفـق أحيانًـا و فـى عنـف أحيانًـا أخـرى و فـى أواخـر رسـائله بـدأ يهـدد بالامتنـاع عـن المراسـلة. قـرر «شـوقى» الـرد و بسـرعة لكنهـا لعنـات التجـارة و المـال حتـى وجـد نفسـه فـى أرذل العمـر بـلا صديـق.

هـام فـى شـوارع المدينـة وحيـدًا، المبانـى أشـباح ضخمة، الأشـجار تتراقـص كأنهـا عالـم غريـب غامـض مـن الجـن، قادتـه أقدامـه إلـى حدائـق الشـلالات فجلـس علـى أريكـة حجريـة يتذكـر مغامـرات المراهقـة و الشـباب مـع صديـق مفعـم بالحيـاة. كان «شـوقى» و مـازال ميـالاً للهـدوء و الكآبـة، ميـالاً للوقـار و الخضـوع لتقاليـد المجتمـع وتحمـل المسـئوليات الجسـام، ميـالاً للتضحيـة مـن أجـل الآخريـن بينما كان «جـورج» ميـالاً إلـى المـرح و الانبسـاط، كثيـرًا مـا يسـحب صديقـه للاسـتمتاع بمباهـج الحيـاة. أصبحـا يكمـلان بعضهمـا البعـض، كل منهمـا يصحـح مسـار الآخـر و يكشـف لـه نفسـه علـى حقيقتهـا دون اسـتحياء فصـدق عليهمـا المثـل القائـل الصديـق مـرآة صديقـه.

اجتاحـه حنـين جـارف إلـى البحـر الـذى ابتلـع صديقـه إلـى عالـم مجهـول. لا يعـرف لمـاذا اختـار الشـارع المجـاور لمقابـر الجاليـات الأجنبيـة بالرغـم مـن وجـود طـرق كثيـرة تـؤدى إلـى البحـر.

اخترقته النسائم الباردة، ربط زرار سترته الأخير ثم جلس على أريكة خشبية يتذكر يوم الرحيل، ابتسم عندما تذكر دهشة ضابط أمن الميناء من الصداقة الوطيدة التى نشأت بين مصرى مسلم و لبنانى مسيحى.

على مقربة منه رجلان عجوزان، كل منهما يجلس على مقعد خشبى صغير و فى يد كل منهما بوصة يصطاد بها. يجلسان فى صمت مترقب على أمل صيد ثمين، ثم راح أحدهما يعد كوبين من الشاى. حاول التقرب منهما لكنه تراجع بعد أن اكتشف فشله فى تكوين أى صداقات جديدة. صحيح أنه يعرف كثيرين، تجارًا كبارًا وعملاء مرموقين، معظمهم على خلق كريم لكنه لم يستطع أبدًا الانخراط فى أى صداقة معهم.

و أخيرًا أُذن لصلاة الفجر، انتفض، جلجلت فى أذنيه كلمة الله أكبر، اقتلعته من جذوره، حاول كثيرًا السيطرة على انتفاضات جسده بلا فائدة.. رأى الصيادين يلملمان حاجتيهما فى هدوء ثم دلفا فى أحد الشوارع متجهين إلى المسجد.

هب واقفًا و سار خلفهما، و هما يخلعان حذائيهما على باب المسجد كاد أحدهما يسقط فسنده الآخر و هو يبتسم له مشجعًا مداعبًا:

- لقد أصبحت عجوزًا.

- بل أشعر كأننى فى العشرين.

دخل المسجد و جلس فى زاوية بعيدة يستمع إلى القرآن.

انهمرت دموعه بشدة و بكى بكائًا عنيفًا كما لم يبك من قبل، لم يبك بهذه الحدة إلا يوم وفاة والدته فقط.

أُقيمت الصلاة و هو يجاهد ليسيطر على انفعالاته. بعد الصلاة رمقه الرجل المجاور له فى آسى ثم قال له معزيًا:

- شد حيلك. الدوام لله.

عندما خرج من باب المسجد رأى الصيادين الصديقين يقتسمان ما اصطاداه و سمع أحدهما يقول و هو ينتقى أسماك معينة من حقيبته:

- خذ هذا «الدنيس» بالهناء و الشفاء.

فقال الآخر ضاحكًا:

- و خذ أنت هذا «المرمار» لحفيدك العفريت.

جلجل الصديقان بضحكة مدوية يتحديان بها الزمن.

عاد «شوقى» إلى البحر بخطوات ثقيلة قهرتها الوحدة وهناك رأى على الشاطئ طائر أبيض رقيق، تعجب من وجود طائر فى مثل هذا الوقت. راح الطائر الأبيض يلف و يدور حائرًا ما بين

الأرض والبحر و أخيرًا عاد إلى البحر، حلق بعيدًا بعيدًا حتى اختفى فى سماء المجهول... و هتف «شوقى» بهدوء:

- «جورج»... «جورج»!...

أرهف سمعه كأنه ينتظر الإجابة لكن الرد لم يأت، البحر يرغى و يزبد استعدادًا للعاصفة القادمة.

عاد إلى منزله، ألقى بنفسه على الفراش منهمكًا خائر القوى. فى الصباح تلقى فاكس يقول: («جورج» مات).

●●●

الفانوس

الظـلام الدامـس يحيـط بالصغيـر مـن كل مـكان، الضبـاب الكثيـف يتحـرك مثـل شـيطان ماكـر، أضلـه الشـيطان عـن الطريـق فأصبـح لا يعـرف كيـف العـودة إلـى قريـة الصيادين حيـث يوجـد كوخـه الصغيـر الـذى يضـم والديـه و أخوتـه... نظـر إلـى السـماء فوجدهـا قـد تغيـرت كثيـرًا، اختفـت النجـوم، القمـر موجـود لكنـه لـم يعـد يشـع ضـوءًا مثلمـا كان فـى الماضـى ، و أصبـح شـاحبًا باكيًـا خلـف السـحب السـوداء...

أعـواد البـوص تتمايـل يمينًـا و يسـارًا مـع الهـواء، ينكسـر بعضهـا فيحـدث طقطقـة ينخلـع لهـا قلبـه الملهـوف . أرهـف سـمعه، عـواء ذئـب جائـع يبحـث عـن ضحيـة ليفترسـها بتلـذذ و شـهوة. لـم يـدر «عـادل» مـاذا يفعـل و هـو ابـن العاشـرة قليـل الخبـرة ضعيـف البنيـة. الأرض تحـت قدميـه طينيـة لينـة مـن أثـر رطوبـة الملاحـات و البحـر، أقدامـه تغـوص وكأن الطـين يبتلعـه، انتـزع نفسـه بقـوة و تـرك أقدامـه للريـح دون تحديـد الاتجـاه... تعثـر فـى صخـرة قاسـية، انبطـح أرضًـا فـى مسـتنقع مظلـم، ابتلـع الميـاه العكـرة و ذاق طعـم التـراب المالـح. هـب واقفًـا بسـرعة لا يلـوى علـى شـىء و أكمـل ركضـه إلـى أن وصـل إلـى كـوخ صغيـر... الكـوخ معتـم مهجـور، دخـل هاربًـا مـن الذئـب الجائـع...

كدح زناد عقله الصغير محاولاً استعادة الطريق، كان منذ بضعة أشهر يسير على الطريق الإسفلتى السريع هادئ البال سعيدًا بالنور الذى يسطع بطول الطريق، يأنس بالسيارات الكثيرة، سيارات ملاكى و أجرة من جميع الماركات و الألوان، عربات نقل تحمل البضائع و الخضروات، بعضها يحمل الأسماك من قريته إلى العاصمة، و عند نقطة محددة ينحرف يمينًا إلى مدق ترابى، يسير فيه لمدة دقائق معدودة فيصل إلى القرية ليجد والدته أعدت طعامًا شهيًا...

فى الصيف أتى عمال شركة الكهرباء و نصبوا الأبراج الحديدية فى الطريق إلى القرية، سأل «عادل» فعلم من الكبار أن الكهرباء فى الطريق. فى هذا اليوم قال الشيخ «محمد» إمام المسجد مستبشرًا:

- فى خلال بضعة أيام ستدخل الكهرباء إلى القرية فتنير البيوت و الشوارع ، ثم يأتى الدور على الأسفلت، ثم تقام سوق كبيرة لبيع الأسماك بالجملة، و أخيرًا تفتح المحلات و المقاهى.

ضحك كبير الصيادين قائلاً:

- عمار يا بلد عمار.

و مضت بضعة أيام، تلتها بضعة أسابيع، و لم تصل الكهرباء إلى القرية و كأن الحكومة قد نسيتهم فى هذا الظلام الأبدى.

وبعد شهرين اشتعلت النيران، هب شيطان الحرب مرحًا سعيدًا ينفث سمومه فى العقول و النفوس... علم الصيادون أن مولدات الكهرباء قد انفجرت.

أظلمت الطرق السريعة التى تحيط بالقرية، هجرتها السيارات السريعة المحملة، بدت الأبراج فى الليل البهيم مثل الأشباح الهائمة تتشابك عليها الأكياس البلاستيكية الممزقة وبعض صفحات الجرائد المهلهلة. و فى العتمة انتشرت الذئاب ترتع فى كل مكان بحثًا عن الفرائس من الأبرياء حسنة النوايا...

عندما اشتد الظلام طلب «عادل» من أبيه شراء فانوس يسترشد به عند العودة من المدرسة التى يتأخر فيها كثيرًا، يمكث هناك فى المكتبة بعد انتهاء اليوم الدراسى يقلب فى الكتب إلى أن يقع على عنوان مثير، كتاب يشعره بأنه سندباد يبحر فى العالم اللامتناهى الغامض، و آخر يفتح له أبواب مغارة «على بابا» على أجمل و أروع كنوز الدنيا. ينسى نفسه تمامًا بمساعدة و تشجيع أمين المكتبة. لو تركوه على سجيته لأقام طوال الليل و النهار فى المكتبة. و لذلك رفضت الأم شراء الفانوس بشدة. هذا الفانوس سيعاونه على السهر فى المكتبة فيعود أثناء العتمة المرعبة... تعلم جيدًا أن ابنها يسير فى الطريق الصحيح ، كثيرًا ما تتفاخر بين جيرانها عندما تراه يتحاور بجدية و اهتمام مع الشيخ «محمد» الذى يبتسم له فى ترحاب و هو يضيف له معلومات مثيرة من

شتى أنواع العلوم الدينية و الفكرية. لكنه قلب الأم الذى يجعلها تعاتبه على التأخير. كيف تترك أم ابنها يضيع فى غياهب الظلام بين الذئاب المتوحشة. بيد أن الأب وافق مشجعًا ابنه على القراءة:

- سأشترى لك الفانوس عندما أعود غدًا من الصيد.

وفى الصباح الباكر شاهد الصيادون الأسماك و هى تطفو ميتة على سطح المياه. عندما بحثوا فى الموضوع علموا أن مياه الملاحات قد سممت بأحد القنابل، تطوع أحد الشباب يرد على استفسارات الصيادين حول ما يُقال عن مدى دمار الأسلحة البيولوجية الحديثة.

حذرهم الشيخ «محمد» تحذيرات شديدة بألا يقربوا الملاحات أو يأكلوا من خيرها الذى كان... ضرب الرجال كفًا بأخرى، ولول النساء، كيف يهجروا الملاحات و هى مصدر رزقهم الوحيد، لا يبقى لهم سوى الموت جوعًا فى غياهب الظلام دون أن يشعر بهم أحد. قال الشيخ «محمد» فى اصرار:

- لا سبيل أمامنا سوى تطوير مراكبنا لنصطاد من البحر، وهو لا يبعد عنا سوى كيلومترًا واحدًا.

اعترض الصيادون:

- البحر له رجاله.

- لا نعلم شيئًا عن البحر يا شيخ «محمد».

- البحر غدار لا يرحم.

عاد الشيخ «محمد» يقول بإصرار:

- إنه الأمل الوحيد فى الحياة.

نقلوا أكبر مركبتين لديهم فى البحر، استبدلوا الشباك بأخرى مناسبة. اختاروا من بينهم أمهر ستة صيادين للقيام بالتجربة الأولى، و كان والد «عادل» من أمهر الصيادين... ذكر الابن أبيه بوعده له بشراء الفانوس بعد العودة من الصيد فابتسم الأب قائلاً:

- ادعوا لى يا ولدى أن يقدرنى الله و أبنى لك مكتبة خاصة فى هذا الركن.

خرج الرجال للصيد، استقبلهم البحر بالترحاب، تهادت المركبتان على أمواجه و كأنها تكمل لحنًا هادئًا مع البحر الفسيح والسماء الصافية. ألقى الرجال بالشباك، أخذت إحدى المركبتين طرف الشبكة مبتعدة قليلاً، تصبب العرق من لفحات الشمس الحارقة و ارتفعت الدعوات أملاً فى الصيد . و عندما استدارت المركب عائدة لتحكم غلق الشبكة تلقت الموجة القادمة من جانبها فانقلبت . و عاد الصيادون محملين بالصيد و جثة والد «عادل»...

اضطر الصغير للعمل فى غزل الشباك ليدبر مصروفه اليومى، لكنه لم يستطع أبدًا مقاومة إغراء هذه المكتبة المثيرة،

فيذهب إليها بعد انتهاء عمله و لا يعود منها إلا فى وقت متأخر من الليل بعد أن تكون الذئاب قد خرجت بحثًا عن الفرائس. و ها هو حبيس هذا الكوخ المهجور، حفيف الرياح بين أعواد البوص يثير فزعه، ينتفض كلما تحركت ورقة الجرائد المهلهلة على البرج.. العرق يتفصد منه بغزارة. أرهف سمعه و كل حواسه، سمع صوت خطوات قادمة.. إنها الذئاب بلا شك بعد أن اشتمت رائحته... انزوى فى أحد الأركان متكومًا على نفسه، الخطوات تقترب، فوجئ ببصيص من النور يدخل الكوخ المعتم، إنه الشيخ «محمد» يحمل فانوسًا ذاهبًا إلى المسجد الذى على قارعة الطريق لرفع آذان الفجر. حاول «عادل» الوقوف على أقدامه المرتجفة، حاول الكلام لكنه لم يستطع أن يقل شيئًا .. ضمه الشيخ إلى صدره و وهبه الفانوس، تلقفه الصغير فرحًا، فإنطلق عائدًا إلى القرية يسبقه ضوء الفانوس بينما صوت الشيخ «محمد» يصدح فى الفضاء «الله أكبر الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله...

●●●

الملجأ

سرت وحدى. لا أعرف من أين أو إلى أين؟!... منطقة غريبة كل الغرابة.. كأننى قد دُفعت إليها دفعًا.. و رحت أبحث عن بغيتى...

تلفت حول نفسى فى كل اتجاه... لا أحد... الطريق خاليًا موحشًا.. أرضية الشارع مغسولة بالندى.. الضوء الشاحب يتسلل بين الأشجار الضخمة المخيفة باكيًا.. الأوراق الصفراء الهالكة تتجمع أسفل الأشجار.. الأغصان تتشابك مع بعضها البعض كخيوط عنكبوت ضخم.. دقات حذائى تتردد عالية.. كأنها تطرق أبواب الليل بشدة... لكنها مغلقة باحكام شديد... أسرعت.. وأسرعت الدقات.. دلفت إلى شارع ثان و ثالث... لا أحد...

اصطدمت أذناى بنباح كلب مسعور... النباح يأتى من خلف الأشجار الكثيفة الميتة... توقفت قليلاً لأتأكد من صدق حواسى.. عندما تأكدت من ذلك أسرعت الخطو.. و البحث.. ثم تركت أقدامى للريح فنمى الرعب و الهلع...

عرجت إلى شارع جديد. رأيت شجرة ضخمة كئيبة.. فجلست فى حضنها أبكى و أحلم... ثم عاودت البحث... نبهت كل حواسى لما يدور حولى... بما فيهم الحاسة السادسة... سمعت

صوت حركات خفيفة يأتى من مكان قريب... فشعرت بالألفة تدب حثيثًا إلى صدرى الملتهب اللاهث... توجهت نحو الصوت... فانتفضت فزعًا...

أنقاض بيت مهدوم... من بين الأنقاض تتناثر بعض الأعضاء البشرية ... و الجماجم البشرية الخاوية العارية... و القطط!... تتجمع حول الوليمة سعيدة.. مواؤها كترانيم أرواح القبور الهائمة الضالة.. ضوء خافت ساحر ينبعث من عينيها ليخترق خلايا جسدى النحيل المبلل بالعرق.. تغرس أنيابها الحادة فى لحم الأعضاء البشرية... فتتساقط قطرات من الدم على الفراء الأبيض الناعم...

انتفضت ألهث بين الشوارع... أتلفت إلى الخلف من حين لآخر... حاولت الصراخ و طلب النجدة... ضاع صوتى فى ضجيج القلب المرهق...

جاهدت كثيرًا لكى أخفف من ارتعاش خطواتى... نظرت إلى السماء لأسترشد بالنجوم... فلم أجدها... فروع الأشجار الرفيعة المتشابكة حالت بينى و بينها. كأنها تأبى ارشادى... الحق معها... كيف ترشدنى و أنا لم أسجد لربها قط...

فى آخر الشارع رأيت شبحًا واقفًا.. إنسان ربما.. أو ملاك جاء لإنقاذى... هذا ما شعرت به... فتتبعته أستأنس به...

دخل الشبح شارعًا جديدًا... و رأيت من بعيد سورًا فاتح اللون!...

اقترب الشبح من السور و دخل.. و اقتربت أنا... الأشجار الخضراء المزهرة خلف السور... رائحتها ذكية تشرح صدرى وتملأنى بالأمل... نغم موسيقى هادئة شجية.. إنه القصر!... نعم قصر جميل هادىء.. آمن من الخوف خال من الجوع... فهتفت فى أعماقى بنشوة عارمة... أخيرًا وجدت ضالتى؟

توجهت نحو الباب... طرقته بدقات خفيفة... بلا جدوى.. ازدادت دقاتى قوة... لا مجيب.. فطرقته بكل ما فىّ من قوة الحب و الصدق و الضياع... فتحطم الباب الحديدى أمامى وسالت الدماء من يدى...

قفزت فوق أنقاض الباب المحطم... رائحة الورود أزكمت أنفى... الضوء الآمن يأتينى من شبابيك القصر... شعرت كأنه يضئ صدرى و ينير طريقى... إنه لم يُخلق إلا لى أنا... دلفت من الباب المفتوح... التحف الجميلة تسحر النفوس.. الألوان الهادئة متناسقة... الرسومات على السجاد رائعة...

طربت لصوت دقات متتابعة لذيذة... بالتأكيد دقات قلب الأميرة... اشتقت كثيرًا لمثل هذه النبضات المليئة بالحياة... تقدمت أبحث عن الأميرة صاحبة القصر... لهثت أنفاسى بعد

أن صعدت سلالم كثيرة و هبطت سلالم أخرى ... وجدت أمامى بابًا مغلقًا... مؤكد حجرة الأميرة.. أميرتى أنا...

مددت يدى أفتح الباب بقلب يزغرد فى حب و نشوة... فرأيتها فاتنة ساحرة... مسجاة فوق فراشها... تتكفن بملابس حريرية مطرزة بالذهب الخالص...

فجلست بجانبها أتأمل رقتها و جمالها... أنتظر... حتى تعود إليها الروح...

●●●

اللقاء

بعد أن حلق «قدرى» ذقنه تحسسها بيده و هو يتأمل وجهه فى المرآة. اكتشف أن التجاعيد قد غزت وجهه من كل صوب، تبدو مثل جروح عنيدة تأبى أن تندمل... شعره أصبح خفيفًا هشًا فى لون الجليد البارد... لاحظ بقعة من الدم من أثر الشفرة، مسحها سريعًا و هو يقول لنفسه بشفقة: و مع ذلك لا بد من حلقها مرة ثانية، سوف يكرموننى اليوم، سأقابل السفير وأتسلم منه شهادة تقدير. لا شك أنهم سيقولون الكلمات الرنانة: ساهمت فى تربية أجيال متعاقبة من المهندسين الأكفاء، تعلموا منك الصبر و الجلد، الإخلاص فى العمل و الشرف فى خدمة الوطن.. كلمات جوفاء لا طائل من ورائها... ليتهم يعلمون أنها شهادة توبيخ و ليست شهادة تقدير على الإطلاق...

بعد إتمام الحلاقة راح يتجول فى أرجاء المنزل، دقات حذائه تتردد فى المكان تبعث فى نفسه الخوف و الوحشة، ارتجف كتفه الأيسر ثم سرت صعقة كهربائية تلهب ذراعه بالكامل، زاغت عيناه، تراقصت أمامه التماثيل و التحف الغالية التى جمعها من أكبر متاجر العالم، بدت له كأنها أشباح تأتيه من العالم الآخر تحمل له رسالة خاصة أو شياطين الغرور و الكبرياء تريد امتلاكه... ألقى بنفسه على

مقعده المفضل محاولاً استعادة توازنه. هذه الصعقة الكهربائية تأتيه من حين لآخر منذ أيام الشباب، اعتاد عليها لكنها بدأت تزداد حدة هذه الأيام و على فترات متقاربة... لا تزول هذه الأزمة إلا بعد تناول أقراص منومة ثم يغط فى نوم عميق ويستيقظ فى الصباح كأن شيئًا لم يكن... لكنه لا يستطيع اليوم تناول الأقراص المنومة، اليوم حفل تكريمه... بعد أن استعاد توازنه قليلاً قال لنفسه: سأحيط الشهادة بإطار ذهبى أنيق وأعلقها هنا حتى أستطيع رؤيتها باستمرار فلا أنسى أبدًا ثمنها...

نظر إلى الساعة فى معصم يده فوجدها تشير إلى السادسة، موعده مع السفير فى التاسعة مساءً، أى مازال أمامه ساعتين، كيف سيقضى هذا الوقت الطويل؟... لا يطيق البقاء فى المنزل... يشعر بالحوائط من حوله كأنها جبال من الثلج تنطبق عليه وتخنقه... فهب واقفًا يرتدى أحدث بذلة لديه اشتراها خصيصًا لهذه المناسبة الجليلة و راح يربط رباط العنق بدقة متناهية رغم ارتجافة أصابعه.

عندما خرج من منزله أحكم سترته حول صدره إتقاء للبرد القارص، الشمس قد غابت، السماء ملبدة بغيوم حمراء تنذر بعاصفة هوجاء... ما أن اقترب من سيارته حتى بدأت الأمطار الخفيفة. هلل مجموعة من الشباب فى السيارة التى تقف أمام

سيارته، يتصايحون فرحًا بالعاصفة مستمتعين بهطول المطر. بدوا له كأنهم مجموعة من الشياطين و الجن يعيثون فى الأرض فسادًا فتذكر قول صديقه العجوز مثله: لم يخلق الله هذه الدنيا إلا من أجل الشباب فقط.

أدار المحرك و راح يتجول فى أرجاء المدينة محاولاً إضاعة الوقت حتى يحين موعد اللقاء. يقود بحذر شديد خوفًا من انزلاق سيارته أو أية سيارة أخرى على الأسفلت المبتل. شعر بالضيق من المطر والزحام بينما هو لا يريد شيئًا سوى الهدوء و السكينة... فر هاربًا من المطبات الكثيرة التى امتلأت بالمياه العكرة إلى ضواحى المدينة... عاوده الارتجاف فى كتفه الأيسر، سرت فى ذراعه تنميلة كأنه واقع تحت تأثير المخدر، اكتشف أنه يمسك المقود بيده اليسرى فأزاحها محاولاً إراحتها و قبض على المقود بيده اليمنى... هذا التنميل الذى يسرى فى ذراعه عرض جديد لم يظهر إلا اليوم فقط بينما ارتجافة الكتف أصابته منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، منذ يوم الرحيل. فى هذا اليوم المشئوم سأله «وحيده»:

- لماذا تسافر و تتركنى وحدى؟

نظر إليه جيدًا، لم يعرف بماذا يجيب على طفل فى الخامسة من العمر فأجابه محاولاً تبسيط الأمور المعقدة:

- لابد أن أسافر و أعمل و أكسب حتى أشترى لك الحلويات والألعاب المثيرة التى تطلبها.

قال الوحيد بصوت خفيض كسير:

- لا أريد الألعاب، لو سافرت سألعب مع من؟!

ألقى الوحيد بنفسه فى حضنه و بكى، سقطت دموعه على كتفه الأيسر تاركة مكانها بقعتين كأنهما من أثر الحرق.

ترك وحيده فى رعاية أخته بعد وفاة زوجته و ألقى بنفسه فى بحور الغربة... بحار لا ترحم، أمواجها عاتية، تياراتها جارفة، والويل كل الويل لمن يسهو أو يغفل. إنه صراع البقاء. لو كان هذا الصراع من أجل بقائه هو لما تردد لحظة فى العودة لكنه من أجل بقاء الوحيد، من أجله يهون كل شىء و من أجله ظل كتفه الأيسر يرتجف من حين لآخر حتى اليوم...

انتبه «قدرى» من تلك الذكريات الأليمة على فحيح سيارة مسرعة تمر بجانبه، اكتشف أنه مازال قابضًا على المقود بيده اليسرى... نظر حوله فى دهشة: ما الذى أتى بى إلى هذا المكان البعيد؟ كان من المفروض أن أستعد لمقابلة السفير... التنميل يزحف فى جسده حثيثًا، القلب ينبض بقوة و عنف، الذراع اليسرى تدفع بالسيارة إلى طريق جانبى رغمًا عنه و أخيرًا توقف فى مكان مهجور كئيب بجانب مطب يتوسط الطريق...

على يسار الطريق خط حديدى لقطار بضائع، خلفه تتناثر مصانع تكرير البترول تدفع بألسنة النار إلى عنان السماء، من بعيد تبدو أضواء المدينة كأنها تحترق، الشياطين يعيثون فيها فسادًا...

التنميل يستشرى فى جسده، يزحف نحو قلبه العجوز، نظر إلى المطب الذى يتوسط الطريق، لقد قالت له أخته أن وحيده كان يقود سيارته ثملاً هنا و بجانبه إحدى فتيات الهوى، و عندما فوجئ بهذا المطب إختل المقود فى يده المخمورة فانقلبت السيارة، لقى حتفه بعد أن جمع له الأموال و اشترى له العقارات.

التنميل يحاصره من كل اتجاه، من كتفه الأيسر و الأيمن، من أقدامه، من خلف ظهره، أخطبوط ضخم يحكم قبضته حول صدره يحاول الإجهاز على القلب المريض... رأى أمامه وحيده وهو طفل فى الخامسة يبكى و يقول له: إبق معى، لا أريد الألعاب. ثم رآه وهو مراهق مغرور يتباهى بفتوته و أمواله.. ثم رآه مسجيًا على الطريق وسط بحيرة الدماء، عيناه مفتوحتان، يجلده بنظرات العتاب و اللوم... و عندما أشارت ساعة السيارة إلى الثامنة مساءً ارتجف الجسد بأكمله بقوة رهيبة ثم سكت فجأة جثة هامدة...

●●●

السيد

بينما كان يجلس «سيد» وسط زملائه فى أحد فصول المدرسة الإبتدائية المطلة على البحر مباشرة يتلقون أحد دروس التاريخ سمعوا ضجيجًا عاليًا، هرج و مرج، عربات ضخمة تتحرك تدوس فى طريقها الأعشاب الخضراء، صليل السلاسل، صراخ رجال كثيرين يصدرون أوامر و تعليمات فى غاية الصرامة... تلاشى صوت المدرس وسط الضجيج كأن دروس التاريخ قد ضاعت إلى الأبد... هرول الصغار إلى النوافذ ليروا وحدة عسكرية تنصب معسكرها فى الثكنات القديمة المهجورة خلف المدرسة.

حاولت المديرة السيطرة على التلاميذ و حمايتهم، و بما أنها كانت مربية فاضلة محنكة قررت السماح للأطفال بالبقاء فى المدرسة بعد انتهاء الدروس، ينظفون الفناء و يزرعونه، كما قررت ترك البوابة مفتوحة حتى تشعرهم بأن العمل تطوعى و على من لا يريد المشاركة العودة إلى المنزل فورًا.

انقسم الأطفال إلى مجموعات من تلقاء أنفسهم و تقاسموا العمل بينما وقف «سيد» حائرًا محنى الرأس يركل بقدميه زلطة صغيرة. يعرف مقدمًا أن كل المجموعات سترفضه أو تقبله مكرهة، إنهم يعايرونه دائمًا بأمه الراقصة فى الملاهى الليلية

تكشف جسدها للمخمورين و يتندرون بسوء حظ أبيه الذى يدمن القمار.. سحب صديقته و جارته الأقرب إليه من يدها، خرجا معًا، سارا بمحاذاة سور المدرسة على مدق ترابى يتعثران فى الحجارة المتآكلة بفعل رطوبة البحر حتى وصلا إلى المعسكر. خافت صديقته فسحبت يدها و ولت هاربة بينما ضحك «سيد» بصوت يحاول أن يجعله جهوريًا ساخرًا من جبنها و ضعفها. ثم التفت يرقب المعسكر بفضول طفولى برىء. انبهر لضخامة المدفع الذى يتوسط المكان، فأصبح يخرج كل يوم من المدرسة ليراقب المعسكر باندهاش كأنه يشاهد أحد الأفلام السينمائية المثيرة.. أُعجب بخطوات الجنود المنظمة بدقة بالغة، افتُتن بتدريباتهم النشيطة المفعمة بالفتوة والشباب بينما يتوسطهم القائد بثبات ممشوق القوام مرتديًا ملابس نظيفة يتباهى بالنياشين البراقة فوق صدره، يصرخ فيهم عابث الوجه... المدينة خلفهم فى حمايتهم و البحر أمامهم بكل جبروته...

أصبح لا يعى شيئًا من دروسه، يرى المدرسين أمامه يحركون شفاههم دون أن يسمع لهم صوت. يشرد ببصره مبتسمًا و هو يتخيل نفسه قائدًا عسكريًا يقود الجنود بحزم و يسود القوم بقوته و هيبته...

فى أثناء الاستراحة بين الدروس فوجئ بصديقته تروى شجرة بجوار نافذة فصلهما، تأملها باستغراب قائلاً:

– هذه الشجرة ستحجب عنا رؤية المعسكر و متابعة ما يجرى هناك.

فقالت الصغيرة مبتسمة:

– لكنها ستطرح الورود خلال بضعة أسابيع.

تعجب كيف تفضل الشجرة على هذا المعسكر المهيب القابع بجوارهم.... إنه يتمنى رؤية هذا المدفع أثناء العمل يطلق النيران فى كل اتجاه، لا شك سيكون مشهداً أروع بكثير من الألعاب النارية البسيطة التى يلهو بها. ستكون فى السماء كل الألوان فى أبهى وأعظم صورة... لولا خشيته من عقاب المدرسين لاقتلع هذه الشجرة من جذورها...

بعد العشاء أرسلته أمه لشراء بعض الأدوية لأخته المريضة فرأى رجلاً واقفًا على قارعة الطريق بجوار عربة خشبية يضع فوقها الأهداف للنيشان عليها بالبندقية، يلتف الشباب حوله يتنافسون و يتقامرون، و عندما تناول البندقية شعر بمدى ثقلها فى يديه الصغيرتين لكنه وضع البارود فى ثبات و فى عينيه بريق التحدى محاولاً تقليد الكبار، لعب معهم بثمن الدواء. و عندما عاد إلى البيت خالى الوفاض ركله الأب بقدميه و هو يسبه بأقذع السباب ثم أقسم بأن يتركه يبيت على عتبة السلم طوال الليل. فراح يهيم فى الشوارع وحيداً، قادته قدمه إلى المدرسة، دار حول السور متوجهًا إلى المعسكر

الذى أصبح ملاذه. ارتجف عندما رأى الحراس يتحركون فى الظلام البهيم كأنهم أشباح الموت، المدفع يتوسط المعسكر مغطى بالقماش الذى يتطاير كأنه شيطان يتهدد ويتوعد...

لم يخبر أحدًا بمدى فزعه حتى لا يسخرون منه، بدأ ممارسة الألعاب الرياضية محاولاً تقوية عضلات جسده، فعندما يكون الإنسان قويًا لا يهاب شيئًا كما يقول مدرس الألعاب. فرض نفسه على زملائه للإشتراك معهم فى كرة القدم، يبذل قصارى جهده للحصول على الكرة ثم يتجه إلى الهدف مباشرة و هو يبعد كل منافسيه بكلتا ذراعيه حتى يحقق الهدف، فيلتف فريقه حوله يعانقونه فى فرح مهللين، يعترض الفريق المنافس فيقول فريقه أن المنافس يحقد على قوته بينما يقف «سيد» بينهم صامتًا منتشيًا بالحديث عنه.

وصل إلى مسامعه ما يتردد بين المدرسين عن الحرب المتوقعة، البعض يرى النصر قريب، البعض يتشكك فى قوة بلاده بينما قالت مدرسة الرسم:

- نيران الحرب لن تفرق بين منتصر و مهزوم.

ابتسم فى نفسه لأن الجميع يهاب الحرب بينما هو لا يشعر بالخوف، بل إنه يدعو الله أن تقوم الحرب فى أقرب وقت ليرى المدفع و هو يطلق النيران بكل قوة و عظمة. و كان له ما أراد

عندما أعلنت المديرة إقفال المدرسة بدءًا من الغد كما نبهت عليهم بألا يبتعدوا من أهلهم و ذويهم.

استقبل «سيد» الخبر بفرح شديد، لقد تحرر أخيرًا من سلطة المدرسين، تخلص من حمل الحقيبة المثقلة بالكتب بينما بدأ الجميع يتحدث عن الحرب بانفعال شديد.

فى صباح اليوم التالى ذهب إلى المدرسة نشيطًا بلا كتب، فى الطريق قابله رجل عجوز متغضن الوجه ذو لحية بيضاء كثيفة، يبدو فى عينيه القلق و الترقب، صرخ فيه قائلاً:

- إرجع يا ولد.

خاف «سيد» فجرى من أمامه ثم قفز فوق سور المدرسة، صعد إلى السطح فرأى سفينة حربية. الجنود حول المدرسة يعدون عدتهم، دُهش عندما رأى طلقات المدفع تخرج من باطن الأرض من خلال مصعد خاص، الكل يتحرك فى نشاط و جدية، التوتر يخيم على المعسكر، القائد يتوسطهم رابط الجأش فى عظمة، و فجأة بدأ تبادل النيران بين الجانبين، قفز «سيد» فرحًا باللعبة المثيرة بينما صرخ الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء من جوار سور المدرسة:

- إرجع يا ولد... إرجع يا ولد...

لـم يسـمعه «سـيد» حتـى دُكـت المدرسـة دكًا و احترقـت أشـجار الـورد...

●●●

رحال

جلس الشاب على قطعة خشبية مكعبة الشكل على مقربة من الخيمة، يرتدى بنطلونًا من الجينز، يشمر قميصه الأزرق، يفتح أزرار قميصه مستمتعًا بنسمات الليل الأولى.

أصوات غامضة تحيطه من كل جانب فلا يدير لها بالاً، غالبًا تعود الوحوش إلى أوكارها فى هذه الساعة متخمة البطون. انهمك فى إعداد كوب من الشاى على الموقد الصغير، النهر ينساب خلفه صافيًا رائقًا بينما تمتد أمامه الأشجار من كل الأنواع، بعضها يتداخل مع بعضه البعض، و البعض يتنافرون. الأرض تكسوها الأعشاب الكثيفة، لا أحد يعرف ماذا تخبئ فى جوفها، جحر ثعبان أو عقرب فتاك. فى السماء تحلق الجوارح بحثًا عن أى شىء يؤكل. فى ناحية الشرق يبدو الجبل بعيدًا شاهقًا يأوى الذئاب و الثعالب، فوق قمته يتكاثر الجليد...

كان الشاب عاشقًا للترحال باحثًا عن المعرفة و الحكمة، جاب الصحراء حتى نهاية أطرافها، غامر فى أعالى البحار حاملاً فى صدره شعورًا مريرًا بالغربة، غريب عن الحياة بأكملها حتى إنه يشعر فى بعض الأحيان أن الحياة نعمة لا يستحقها، فيسأل نفسه ولماذا الحياة؟... فى محاولة منه لقهر فناء الموت البغيض يدون

كل مذكراته و أسفاره فى مجلد ضخم لا يفارقه أبدًا، قد تفيد هذه الأسفار أحدًا فى يوم من الأيام فيترحم عليه بعد أن يبتلعه شبح الموت... لكنه عشق هذا المكان أكثر من أى مكان آخر، ولهذا أعد خيمته إعدادًا جيدًا، قد تطول إقامته هنا...

بعد أن شرب الشاى مدد جسده على الأعشاب المضيافة، النجوم تتلألأ فى قبة السماء الصافية يتوسطها القمر بدرًا رائعًا ساحرًا، اكتشف أن للقمر عينان و أنف و شفتان كما يقول الشعراء، بل أروع بكثير من كل ما قيل عنه، إنه يبتسم له، يشبه وجهها الصبوح الذى رآه منذ بضعة أيام قليلة...

فى اليوم الأول له هنا ذهب يتجول فى الأدغال مستكشفًا المكان إلى أن وصل إلى أرض غامضة وحشية يتوسطها كوخ خشبى يرتفع عن الأرض بواسطة أربعة دعائم خشبية، الأرض تكسوها نباتات غريبة أوراقها ما هى إلا أشواك خالية من الثمار أو الأزهار. جرحت قدماه فقفز فوق شجرة مهيبة ضخمة متساقطة الأوراق، جال ببصره فى المكان إلى أن طلت عليه من النافذة، عينان واسعتان ساحرتان تشعان بريقًا و صفاءً. ارتجف فسقط فوق الأشواك، ابتسمت مشجعة، شعر بالأسود تعود إلى عرينها الذى كان كهفًا على يسار الكوخ ففر هاربًا.. نصب خيمته و رتبها، أعد لنفسه الطعام فأكل بشراهة و بات طوال الليل يفكر

فى صاحبة الكوخ. لا شك أنها ابنة زعيم قاس لأحد القبائل أراد معاقبتها فحبسها فى هذا الكوخ المحاط بالمخاطر من كل اتجاه...

لم ينم طوال الليل، ذهب يبحث عن الكوخ، فأصبح يذهب إلى هناك كل يوم، اكتشف شفتاها المكتنزتان و وجنتاها الحمراوتان وشعرها الطويل الذى ينساب حول وجهها فى نعومة، اكتشف ابتسامتها البريئة براءة الأطفال الذين لا يدرون شيئًا عن هذا العالم الوحشى. يعود آخر النهار إلى خيمته بقلب خافق و جسد يرتجف من مشهد الأسود الجائعة دائمًا، الدم يسيل من قدميه فيأوى إلى خيمته يضمد جراحه، زهد فى الطعام حتى أصابه الدوار فقرر خلاصًا من كل آلامه و جروحه، قرر التخلص من الأسود حتى لو كان الثمن حياته، كما قرر اقتلاع الأشواك و زرع الياسمين بدلاً منها، هذا هو النبات الذى يناسبها فإنها فى رقته و نصاعته...

ظل راقدًا على ظهره يتابع القمر البعيد و هو يبحث عن كيفية الحصول على عقلات الياسمين. سمع صوت شىء ما يتحرك بالقرب منه فهب مذعورًا، أشعل عود حطب بيده اليسرى و سلاحه فى اليد اليمنى، ففى الأحراش لا مكان للرحمة، الصراع هنا من أجل البقاء. انتبهت كل حواسه، الصوت يأتيه من الخلف، التفت ليجد نورًا يقترب منه فإذا به رجل عجوز ذو لحية بيضاء يحمل فى يده شعلة صغيرة، رأى فى عينيه السماحة، التجاعيد

فـى وجهـه تـدل علـى خبـرة السـنوات الطويلـة، ابتسـم العجـوز فـى ترحـاب فجلسـا معًـا، قـال العجـوز:

– القمـر يكون سـاحرًا رائعًـا عندمـا نراقبـه مـن بعيـد لكن عندما نقتـرب منـه نكتشـف أنـه كتل صخريـة ميتـة خالية مـن أى حياة.

لم يرد الشاب مؤكدًا الكلام ، ثم قال فجأة:

– ما قصة الكوخ؟

ابتسم العجوز و هو يقول :

– «وهـج»؟!

– هل هذا اسمها؟

– نعم، إرحل يا ولدى.

قال الشاب فى إصرار:

– إما أن ترحل معى أو أمكث معها هنا.

برقت عينا العجوز دهشة ثم قال:

– الأمران مستحيلان.

اندفع الشاب قائلاً مثل زعيم يستثير جنوده:

– لا يوجـد مسـتحيل، لقـد كـدح العلمـاء زنـاد عقولهـم إلـى أن هداهـم الله للوصـول إلـى القمـر.

بـدأت الأمطـار فـى الهطـول رذاذًا خفيفًـا، دخـلا إلـى الخيمـة وهنـاك قـال العجـوز:

- لن أنصحك بعد اليوم حتى لا أثير فيك العناد.

قال الشاب فى تحد:

- لست مراهقًا كما تتصور.

جـال العجـوز ببصـره فـى أركان الخيمـة إلـى أن وقعـت عينـاه علـى المجلـد فسـأل:

- ما هذا الكتاب؟

- إنها خبراتى التى أدونها فى أسفارى.

- عمل جليل تستحق الشكر عليه.

- أحاول أن أفعل شيئًا ذا قيمة.

- هذه أكبر قيمة، ماذا كتبت عن أرضنا؟

طأطأ الشاب رأسه قائلاً: «لا شىء»

- لماذا؟

- كل ما أفكر فيه الآن إنقاذ «وهج» من أسرها.

سأل العجوز فى يأس من شعر بخيبة الأمل:

- و ما هى خطتك؟

أجاب الشاب بحماس:

- لقد نصبت اليوم فخاخًا للأسود و من الغد سأقتلع الأشواك و أزرع مكانها الياسمين، لكنى لا أعرف من أين سأحصل على العقلات فى هذه الغابة المتوحشة؟

قال العجوز:

- قريتنا على بعد كيلومترين من هنا، لو أتيت إلىّ فى الصباح ستجد العقلات جاهزة.

شمر الشاب عن ساعديه و راح يقتلع الأشواك بحرص شديد، يريد اقتلاعها من جذورها تمامًا حتى لا تنبت مرة أخرى فتعكر صفو الياسمين النبيل. أطلت «وهج» من عليائها بعينيها الأسيرتين، ارتجف فى نشوة، شعر بشىء ما يدغدغ أقدامه فإذا به ثعبان يلدغه، هوى عليه بالبلطة ثم جرى عائدًا إلى خيمته لتعاطى الأمصال الواقية.

فى المساء أتى العجوز ليجد الشاب يرتجف، شاحب الوجه، سأله:

- هل دونت خبراتك عن هذه الأرض؟

أجاب الشاب بالنفى فسأل العجوز: «متى؟»

برقت عينا الشاب فى صفاء قائلاً:

- ليس قبل أن أغرس الياسمين.

ابتسم العجوز قائلاً:

- هل شاركتك فى نزع الأشواك؟

نفى الشاب ثم اندفع قائلاً:

- أراهن أن زعيم القبيلة قد وضع لها شيئًا ما فى الطعام أصابها بالمرض و سلب إرادتها.

لم يقل العجوز شيئًا فأكمل الشاب دفاعه:

- ماذا تتوقع من إنسانة فى رقتها تواجه زعيمًا غاشمًا جاهلاً فظ القلب... أنا واثق أنها ستعود إلى طبيعتها عندما تشم رائحة الياسمين النبيلة.

قال العجوز فى يأس:

- إفعل ما شئت يا ولدى.

انصرف العجوز، ابتسم الشاب لنفسه فى ثقة ساخرًا من هذا العجوز الذى يرى كل شىء فى الدنيا مستحيل. ما جدوى الحياة إذا كنا عاجزين عن تحقيق أحلامنا، رغم حكمته و خبرته إلا أنه مازال يعتقد فى السحر مثل بقية سكان الغابة الجبناء، لقد اعتادوا الخوف من الوحوش و عندما يفشلون فى مواجهتها يفسرون ذلك بقوة السحر.

استشـرى النـوم فـى جسـده رويـدًا رويـدًا مثـل المخـدر، رأى «وهـج» و هـى تخـرج مـن كوخهـا تتجـول فـى هنائـة بـين أشـجار الياسـمين، تنحنـى تقطـف الأزهـار فينسـاب شـعرها الطويـل يخفـى جمـال وجههـا، تشـم الروائـح النبيلـة فيتفتـح قلبهـا علـى عالـم وردى سـاحر فتشـكره علـى تحريرهـا مـن هـذا السـجن البغيـض...

نبتت شـجرات الياسـمين، أرسـلت فـى الهـواء عبيرهـا الأخـاذ، أتـت أسـراب الحمـام و العصافيـر الملونـة بعـد أن هربـت الوحـوش بحثًـا عـن الفرائـس الكبيـرة. أطلـت «وهـج» مـن عليائهـا مستنشـقة نفسًـا عميقًـا وهـى تغمـض عينيهـا مسـتمتعة بشـذا الياسـمين، ابتسـمت ابتسـامتها الرائعـة السـاحرة، ألقـت مـن النافـذة كبشـتين مـن البـذور. ضحك الشـاب مـن أعمـاق قلبـه، هـا هـى تتجـاوب معـه، سـيزرعان الأرض معًـا وسـتتحول الغابـة إلـى رحمـة، الإفتـراس إلـى ألفـة...

بـات فـى العـراء بالقـرب مـن كوخهـا فـى انتظـار تحقيـق الحلـم فـى صبـاح الغـد، اسـتيقظ يمـلأه الأمـل فوجـد الياسـمين قـد تسـاقط كلـه مـن الأشـجار، الأوراق الخضـراء أصبحـت صفـراء متهالكـة، نبتت بجـوار شـجرات الياسـمين نبـات آخـر غريـب تتدلـى منـه ثمـار صغيـرة بنيـة اللـون فـى حجـم الليمـون، قطـف إحداهـا بسـكينة، ذاقهـا، علقـم مـر. إلتـوت أمعائـه، ألقـى بـكل مـا فـى جوفـه فانتشـرت رائحـة كريهـة عفنـة، جـرى عائـدًا إلـى خيمتـه...

فـى المسـاء ارتفعـت حرارتـه، حضـر إليـه العجـوز ليجـد العـرق يتفصـد منـه بغـزارة، يرتجـف، عينـاه حمراوتـان، شـاحب الوجـه. جمـع العجـوز مـن جـوار النهـر بعـض الأعشـاب و وضعهـا فـى إنـاء بـه مـاء ثـم قـام بغلـى المسـحوق، أعطـاه لـه، أطاعـه الشـاب محـاولاً التغلـب علـى المـرض. عندمـا حـاول القيـام لـم تسـتطع قدمـاه علـى حملـه، ربـت العجـوز علـى كتفـه قائـلاً:

- لا تغادر الفراش الآن.

شـعر الشـاب بالملـل و اشـمأز مـن المـكان بأكملـه، أراد الرحيـل فأتـى لـه العجـوز بالمجلـد قائـلاً:

- إقتل الملل بتدوين خبراتك و مذكراتك.

حاول الشاب الكتابة لكنه لم يستطع أثناء الليل و لا النهار.

بـدأ يتماثـل للشـفاء، تـرك فراشـه، تحامـل علـى نفسـه و راح يسـير فـى الغابـة بحثًـا عـن الكـوخ، اكتشـف أن الكـوخ مـا هـو إلا قبـر ضخـم تتصاعـد منـه رائحـة المـوت، يقـف بجـوار القبـر حيـوان غريـب غامـض علـى شـكل حربـاء فـى جسـم الإنسـان، يغطـى جلدهـا السـميك الخشـن أشـواك كبيـرة.

لملـم حاجياتـه و حملهـا فـوق ظهـره، ذهـب إلـى المينـاء النهـرى الموجـود فـى القريـة، استبشـر خيـرًا لوجوده بين المغادريـن و القادمين،

صفارات السفن دليل الأمان، حث الخطى حتى لا يقابل العجوز، ماذا يقول له بعد أن تحداه كثيرًا مدافعًا عنها، شعر بيد تخبط على كتفه، التفت فإذا به العجوز يقول:

- لن أتركك ترحل الآن... إنك لم تُشف بعد.

- بل شُفيت.

- لا... لا.

أشار إلى المجلد فى الحقيبة و هو يقول فى إصرار:

- لقد عدت إلى كتابة أسفارى.

ابتسم العجوز قائلاً:

- إذًا، إرحل على بركة الله...

●●●

العصفور

راحت «إيمان» تتأمل العصفور الملون من خلال شاشة التليفزيون بدهشة، على شفتيها ابتسامة بريئة براءة بنت الخمسة أعوام، صدرها يعلو و يهبط بصعوبة، لصوت أنفاسها صفير مزعج ينغرس سكينًا حادًا فى قلب الأم الجالسة بجوارها بينما يراقب الأب ابنته بنظرات فاحصة خبيرة...

التفتت الصغيرة إلى أمها طالبة عصفورًا ملونًا صغيرًا يشاركها اللعب و اللهو. حاول الأب الحديث لكن الأم اعترضته بنظرة متوسلة جعلته ينسحب من المكان، فراحت الأم تقنع ابنتها بهدوء أن العصفور طائر غير نظيف، سيترك قاذوراته فى كل مكان، و من هذه القاذورات تأتى كل الأمراض، العصافير لا تعيش إلا فى الحدائق. اعترضت الصغيرة قائلة: «مع الاستمرار فى العلاج سيزول المرض إن شاء الله».

بكت الصغيرة، صرخت، اعترضت على تناول العشاء محاولة الضغط على أمها لكنها لم تستطع أبدًا الحصول على وعد بشراء العصفور... و فى المساء داهمتها الأزمة، احتقن الوجه بالدماء وبدأ السعال يمزق الصدر الصغير، و قام الأب الذى كان طبيبًا متخصصًا فى أمراض الأطفال بعمل كل اللازم لتمر الأزمة بسلام.

بعد العشاء، حاولت الأم التى كانت شاعرة إقناع زوجها بشراء عصفورين و الإحتفاظ بهما فى شرفة المنزل بعيداً عن حجرة الصغيرة بيد أن الطبيب رفض بشدة قائلاً: «مستحيل أن يعيش مرضى حساسية الصدر مع حيوان أليف، الحيوانات هى السبب الأول للمرض.»

إعترضت الأم قائلة: «لن يجدى العلاج شيئًا مع هبوط الحالة المعنوية، إنها طفلة لا تدرك شيئًا مما تقول»

فقال الطبيب متهكمًا:

- لا يمكن محاربة المرض عن طريق الفن، مستحيل القضاء على الفيروس بقصيدة شعر، لقد وهبنا الله العقل و الحكمة، وبالعلم وحده نسيطر على المرض، بل نسيطر على الكون بأكمله.

بكت الأم قائلة:

- ابنتى تذبل.

فقال الطبيب بهدوء و ثقة:

- إنها ما زالت صغيرة، الاستمرار فى العلاج مع مراعاة شروط النظافة التامة ستشفى إن شاء الله.

استسلمت الأم على أمل الشفاء العاجل الذى يتوقعه زوجها، وفى الصباح اشترت لها لعبة على شكل عصفور، قهقهت الصغيرة

عندما رأت العصفور يقفز و يزقزق، عبثت بأناملها الصغيرة فى فرائه الناعم الذى يشبه ريش العصفور و غاضت ابتسامتها عندما أنهى الزنبلك دورته، و عندما وضعت له الطعام اكتشفت أنه مجرد تمثال خالٍ من أى روح.

حاولت الأم استعادة الابتسامة الصافية العذبة فوعدتها أن تذهب بها إلى النادى فى صباح الغد و هناك لعبت مع أطفال فى مثل سنها، امتلأ صدرها بالرمال، اكتشفت رائحة الورود الذكية فملأت خياشيمها بالرائحة و حبوب اللقاح، فداهما السعال الحاد، اختنق صدرها الصغير فجرت الأم إلى زوجها الطبيب.. نُقلت «إيمان» إلى المستشفى لتلقى العلاج، وضعوا لها محاليل.. بعد انقشاع الأزمة قالت الأم باكية:

- حالة البنت فى تدهور مستمر.

فقال الطبيب معاتبًا:

- أنت السبب. معقول؟! طفلة مريضة بحساسية الصدر تلهو فى الرمال و تستنشق حبوب اللقاح؟!

قالت الأم مدافعة عن كيان ابنتها:

- أردت لها الاندماج فى الحياة لرفع روحها المعنوية فتستجيب للعلاج أسرع. ما جدوى الحياة دون الاندماج فيها.

قال الطبيب فى نفاذ صبر و فى عينيه بريق الحذر:

- ما تفعلينه قد يؤدى إلى الوفاة.

سمعت الصغيرة التى كانت تلعب فى الحجرة المجاورة كلمة الموت فتذكرت المشهد الذى رأته مصادفة فى التليفزيون: المقابر مغلفة بسحابة بيضاء كثيفة تتحرك مثل الأشباح، أصوات ممطوطة غامضة تنبعث تجلجل فى المكان... باتت طوال الليل تنتفض وتصرخ.

قبل أن يسافر الأب لحضور مؤتمر فى الخارج أوصى الأم بكل تفاصيل العلاج، كما شرح لها الإجراءات الواجب إتباعها فى حالة الأزمة، كتب لها كل أرقام تليفونات أصدقائه الذين يعاونونه فى العلاج، شدد فى وصايته على مراعاة النظافة التامة و البعد عن الحيوانات الأليفة و استنشاق الزهور أو التعرض لهواء المكيف.. قالت الأم مستسلمة: «أعرف كل ذلك».

فى اليوم التالى فاجأتها الأزمة التى أصبحت تحدث كثيرًا فى الأيام الأخيرة، السعال لا يفارقها ليلاً أو نهارًا، الصدر يعلو و يهبط فى صراع مرير بين الحياة و الموت.. اتصلت الأم بأحد أصدقاء زوجها فحضر على الفور.. عندما سمعت منه نبرة اليأس تأكدت أن طفلتها فى الأيام الأخيرة. أصابها الذعر، بكت بجنون، فى محاولة البحث عن وسيلة للحفاظ على الحياة

تزاحمت الأفكار فى عقل الشاعرة، تصارعت مع بعضها البعض فى شباك عنيف، تذكرت ما قرأته فى صحف الأيام السابقة: «نقص الكوليسترول أخطر من زيادته فى دم المسنين»، «محاولة إستخراج عقار من نبات التبغ لعلاج السرطان»... تذكرت جارتها «بثينة» التى أصيبت بالسرطان رغم أنها لا تدخن و لا تشرب الخمور، علمت المسكينة أن هناك علاجًا حديثًا عن طريق الجينات ليس له أية مضاعفات فسافرت للخارج لتلقى العلاج من أرباب العلم أنفسهم، عادت بعد بضعة أسابيع جثة هامدة فى تابوت خشبى كئيب... ابنتى التى مازالت برعم صغير لم يتفتح بعد على وشك الموت دون تحقيق أية أمنية أو حلم، إنها لا تدرك أصلاً معنى الأمنية... المجرمون و القتلى يحققون لهم أمنيتهم الأخيرة قبل الإعدام فكيف يكون الحال مع هذا الملاك الذى لم يقترف أى جرم فى حياته. اشترت العصفور، وضعته فى شرفة المنزل، سمحت لصغيرتها أن تضع له الطعام، أدخلت أصابعها الصغيرة عبر قضبان القفص، لمسته، شعرت به فهتفت فى دهشة: «إن قلبه ينبض». ابتسمت الأم لضحكات ابنتها. رفرف العصفور بجناحيه فتطايرت الحبوب فى الهواء، استنشقتها الصغيرة فى مرح، سقطت الرويشات على ملابسها فهللت، جرت سعيدة نحو أمها التى بدلت لها الثياب على الفور...

و عـاد الأب الطبيـب ليـرى ابنتـه فـى تمـام الصحـة و العافيـة، لـم يـرى العصفـور فقـال مبتسـمًا:

– ألـم أقـل لـك الاسـتمرار فـى العـلاج و النظافـة شـىء أساسـى للوصـول إلـى الشـفاء.

ضحكت الشاعرة داعية للعصفور بطول العمر.

●●●

لحظة ميلاد

الكلمات لآلئ تائهة فى أعمق الأعماق... يحاول جاهدًا الغوص ورائها و اصطيادها ليكون منها أبياته الشعرية... لكن عبثًا تضيع المحاولات، القلب المجهد اللاهث عاجز عن الغوص إلى مثل هذه الأعماق السحيقة...

لم يجد أمامه بدًا من الانتظار. انتقل إلى الشرفة المطلة على البحر و جلس يتأمل الأمواج المتسابقة بحثًا عن الراحة والهدوء على شاطئ الأمان بعد رحلتها الطويلة المضنية. تساءل فى نفسه. كيف ترك نفسه يسقط تحت سيطرتها إلى هذا الحد بعد أن كان قد قرر و نفذ قرار العزلة لمدة خمسة عشر عاماً؟!..

ابتسم فى سخرية عندما اكتشف أنه لم يترك نفسه لها. بل هى التى اقتحمت عليه حياته اقتحامًا.

فى اللقاء الأول، كان جالسًا يكتب إحدى قصائده، مرهقًا من البحث عن الكلمات الملائمة لما يجيش به صدره. فى لحظة اليأس رآها أمامه... انتفض. فرك عينيه. تحسس جسده و مكتبه ليتأكد من يقظته. ارتعد خوفًا عندما تأكد من ذلك.

من تكون؟! و كيف استطاعت اقتحام خلوته؟! من أين أتت بالمفتاح؟! و ماذا تريد؟!... وقفت أمامه قليلاً تبتسم له فى صمت، ثم انصرفت.

لابد أنها لصة و عندما اكتشفت عدم وجود شيء يُسرق فرت هاربة.

قرر إبلاغ الشرطة فى الصباح الباكر و عاد إلى قصائده يبثها أثمن ما لديه. لكنه نسى بعد ذلك إبلاغ الشرطة، و ربما يكون السبب وراء ذلك أنه ينسى دائمًا ما يحدث له عندما يكتب أية قصيدة . عندما يكتب ينتقل إلى عالم آخر معزول عن هذا العالم المادى، يصبح كمن يعيش فى جزيرة معزولة أرضها صدق، نخيلها حب، و بحرها عمق...

بعد عدة أسابيع عادت لزيارته مرة أخرى، كان جالسًا يكتب أيضًا. حاول مبادرتها بالأسئلة التى تدور فى رأسه، حاول الاستفسار عن هويتها و معرفة اسمها، نظر إلى عينيها، فدارت رأسه و بدأت أذنه تطن، كأنه مسحورٌ أو منوم مغناطيسيًا... تقدمت نحوه بخطوات رشيقة. جلست تحت قدميه فى صمت. لفحته أنفاسها الدافئة، ارتعش كل كيانه. ثم انصرفت بعد أن استقر فى ذهنه أنها ما هى إلا فتاة ليل تبحث عن الهوى و قد وقع اختيارها عليه لتعبث به.

تكررت زيارتها له بعد ذلك، و شيئًا فشيئًا بدأ يطمئن إليها، بل أصبح ينتظر زيارتها الغريبة. ربما يكون السبب وراء انتظاره كونها فى كل مرة تأتى تعاونه على كتابة عدة أبيات من الشعر فتهدأ نفسه و تستقر روحه.

تساءل: هل ممكن أن يكون قد أحبها؟... و كيف يحبها و هو لا يعلم عنها شيئًا؟! هل يحبها لأنها تشبه «أمل»؟!... إنها فعلاً تشبهها فى القوام، ملامح الوجه و الشعر الأسود الغزير. لكن شتان الفارق بين الاثنتين!...

«أمل» التى أحبها منذ خمسة عشر عامًا كانت تعشق لعبة القط و الفأر. ترفض الصدق و تقبل الكذب. تكره كل ما هو عميق وتعشق كل ما هو سطحى تافه. لا تريد إلا الأخذ و ترفض العطاء، متعتها الوحيدة رؤية عذاب عشاقها. لكن الأخرى تحب الحب ذاته، تعشق الصدق، تشعر بما فى الأعماق دون كلام. تحب العطاء وتأبى أن تختص لنفسها شيئًا، كأنها خُلقت لتمنح كل ما لديها لهذا العالم المادى الجامد... إنهما تتشابهان فى كل شىء و تختلفان فى كل شىء أيضًا، كأن هذه من عالم و تلك من عالم آخر...

... و سقطت الشمس المتوهجة وسط الأمواج البعيدة العاتية، تسير خلفها أشعتها الحمراء الدامية، فبدت له كأنها تبكى، تستنجد بالبشر، بالبحر، لكن رغم أنها نبع الحياة، فالجميع تركها تموت وحدها، كأنها ليس لها وجود...

ترك شرفته، أغلق النوافذ جيدًا، أسدل الستائر، ثم أطفأ الأنوار فيما عدا مصباح واحد صغير يأتيه ضوؤه عبر غلالة رقيقة حمراء. أحضر من دولابه علبتى سجائر و زجاجة الخمر.

عـاد إلـى مكتبـه، أفـرغ علبتـى السـجائر و أشـعل السـيجارة الأولـى مـع أول رشـفة مـن أول كأس. ظـل هكـذا يدخـن و يرتشـف فـى انتظـار.. حتـى غابـت ملامـح الحجـرة فـى دخـان كثيـف و دارت رأسـه. سـقطت كل الحواجـز بـين الأشـياء. اختلطـت كل العلـوم والمعـارف. امتزجـت كل الأحاسـيس و الهواجس و تعانقـت الحيـاة مـع المـوت فـى لحظـة صفـاء غريبـة غامضـة... مـن بـين الدخـان الكثيـف حضـرت بهـدوء شـيئًا فشـيئًا. ابتسـم لهـا فـى ترحيـب و رجـاء. تقدمت نحـوه بخطـوات رقيقـة رشـيقة، سـمع حفيـف ثوبهـا الشـفاف. احتوتـه بابتسـامتها التـى ألفهـا ألفتـه لدمـه. فـرد عليهـا بابتسـامة الطفـل اليتيـم الـذى يبحـث عـن صـدر أمـه...

ارتعشـت يـداه و هـو يمسـك بيدهـا ليدنوهـا منـه و انبعـث بداخلـه شـىء مـا دافـئ راق عندمـا تأمـل عينيهـا السـوداويتين النجلاوتين.

جلسـت علـى حافـة المكتـب. أخـذه بيـاض صدرهـا. دس رأسـه وبيـده جلـب شـعرها الكثيـف مـن الخلـف إلـى الأمـام و غطـى بـه وجهـه فأصبـح مدفونًـا بـين صدرهـا و شـعرها. طربـت أذنـاه لوقـع دقـات قلبهـا. اسـتمتع بسـيمفونية الخلـود وحـده...

بقى هكذا لا يعرف كثيرًا أم قليلاً حتى أخرجته من صدرها برفق فإذا به إنسان يملأه الأمل و الثقة، قادر على التفاعل مع الآخرين و الإحساس بهم. ثم انصرفت بخفة و رشاقة كما أتت...

فعاد إلى قصيدته يكتب و يكتب و يكتب...

●●●

كتب للمؤلف:

- أفلاطون فى عصر الفضاء.
- زهرة الصحراء.
- القرصان.
- ١٢ قصة مهاجرة.
- أفكار متناقضة.
- الحلم.
- «كليوباترا» أميرة الحب و الحرب.
- الطاعون.
- قرطاجنة.
- أساطير الهنود الحمر.
- أساطير الإغريق.
- «إسكندر» عبقرى السيف و الفكر.
- «يوليوس قيصر» العسكرى و السياسى.
- التسامح.

- مقدمة فى الفينومينولوجيا.
- حضارات أمريكا القديمة.
- حكايات البحر.
- تفسير الأحلام.
- أكلة لحوم البشر.
- انتظار.
- حكايات الصيد.
- رحلة إلى مركز الأرض.
- ثلاث حكايات.

●●●

الفهرس	الصفحة

زهرى الصحراء:..... ٥

العقيد «مؤمن»:..... ٨٣

اللهاث:..... ٩٣

الطائر الأبيض:..... ٩٥

الفانوس:..... ١٠١

الملجأ:..... ١٠٧

اللقاء:..... ١١١

السيد:..... ١١٧

رحال:..... ١٢٣

العصفور:..... ١٣٣

لحظة ميلاد:..... ١٣٩

كتب للمؤلف:..... ١٤٥

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر